

صفحات من تاريخ وحضارة بيشة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب،

لغيثان بن جريس، (الجزء السابع عشر) (الطبعة الأولى) (الرياض : مطابع الحميضي، ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م)، ص ١٥ - ٤٧. (الطبعة الثانية، ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م). (نفس الصفحات السابقة).

ثانياً: صفحات من تاريخ وحضارة بيشة خلال القرون الإسلامية المبكرة

والوسيلة . بقلم . أ.د. غيثان بن علي بن جريس^(١) .

م	الموضوع	الصفحة
أولاً:	مقدمة	١٥
ثانياً:	الاسم والموقع .	١٦
	١. الاسم	١٦
	٢. الموقع	١٦
ثالثاً:	التركيبة السكانية	٢١
رابعاً:	بيشة تاريخياً	٢٣
خامساً:	مظاهر الحضارة في بيشة	٣٣
سادساً:	الخاتمة (نتائج البحث وتوصياته)	٤٣

أولاً : مقدمة :

تعد بلدة بيشة من المواطن الحضارية القديمة وإحدى المحطات التجارية الهامة الواقعة على الطريق الجبلي الذي يربط بين صنعاء ومكة^(٢) . مما يجعلها جديرة بأن تكون محور حديثنا في هذا البحث، الذي نستله بنظرة لغوية في اسمها، ثم بإطلالة جغرافية على ما يحيط بها من المراكز الحضارية الهامة ، ثم إلقاء الضوء على سكانها، وأوضاعها التاريخية السياسية والإدارية، وأخيراً ذكر بعض مظاهرها الحضارية المتنوعة، ويقودنا ذلك كله إلى رصد النتائج والتوصيات التي قادتنا إليها هذه الدراسة.

(١) هذا البحث نشر ضمن مداولات اللقاء العلمي التاسع في جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، والذي عقد في مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية في الفترة من (١٦-١٩/٤/١٤٢٩ هـ) / ٢٢ - ٢٥/٤/٢٠٠٨ م) ، ص ٢٩١ - ٢٣٤ .

(٢) الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب. تحقيق محمد بن علي الأكوخ (الرياض : منشورات دار اليمامة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ٢٥٦ ، ٣٤٠ ، ٤٢٧ ، هادي صالح ناصر العمري . طريق البخور القديم : من نجران إلى البتراء وآثار اليمن الاقتصادية (صنعاء : إصدارات وزارة الثقافة والسياحة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) ص ٧٤ - ٧٦ . حمد الجاسر " بلاد العرب في بعض مؤلفات علماء الأندلس والمغرب " ، مجلة العرب. مج (٥) (مقالة ٧) (١٣٩٠ - ١٣٩١ هـ) ، ص ١٣ .

ثانياً : الاسم والموقع :

١ - الاسم :

بيشة بكسر الباء بعدها ياء ساكنة ثم شين مفتوحة ثم تاء مربوطة ، تعني بالعربية السرور والبشاشة، يقال: " بيش الله وجهك وسرجه أي حسنه^(١) . ويقال : بيش وبيشة: موضعان " ووردت بالهمزة " بئشة"^(٢) . والصحيح ذكرها بالياء^(٣) . ويذكر أنها تعني بالفارسية " الغابة "^(٤) .

ومن هذا التعريف المختصر يتضح أن اسمها اللغوي ينطبق على واقعها الجغرافي، فهي أرض غنية بمياهها وخيراتها النباتية ، إذ يوجد فيها المياه العذبة ، وتزرع فيها محاصيل وزروع عديدة ، بالإضافة إلى غنى تضاريسها بالأشجار والنباتات المتنوعة^(٥) .

٢ - الموقع :

اسم بيشة يطلق اليوم على محافظة بيشة الواقعة في الجزء الشمالي من الإقليم الجنوبي في المملكة العربية السعودية ، وتحدها رنية شمالاً ، وأبها وخميس مشيط وأحد رفيدة (جرش قديماً)^(١) جنوباً ، وطريب والعرين وتثليث شرقاً ، والباحة والنماص وتومة غرباً^(٢) . وأخذ هذا الاسم من واديها الشهير (وادي بيشة) الذي تتطرق منابعه

(١) جمال الدين بن منظور . لسان العرب . نسقه وعلق عليه علي شيري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ، ج١ ، ص ٥٠٥ .

(٢) المصدر نفسه . انظر أيضاً: شهاب الدين ياقوت . معجم البلدان . (بيروت: دار صادر ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

(٣) المصدران نفسهما ، وللمزيد انظر : عبد الله بن عبد العزيز البكري . معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع . تحقيق مصطفى السقا (بيروت : عالم الكتب ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، مج ١ ، ج ١ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٤) بحث مكتوب بخط اليد للأستاذ / عبد الرحمن محمد عويد (من أهل بيشة) ، أرسل الينا في (٧/١١/١٤١١ هـ) ، حول التعريف ببيشة وموقعها الجغرافي، ص ١ . وأصل هذا البحث ضمن أوراق مكتبة الباحث . للمزيد انظر : المحلة العربية ، عدد (١٢٥) السنة (١٢) جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ / فبراير ١٩٨٨ م) ، ص ٣٦ .

(٥) حمد الجاسر " من خصائص بعض المدن والقرى في أمثالها ، وما يقال عنها " مجلة العرب . مج (٥) . مقالة (٢) (رمضان ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م) ، ص ٢١٠ ، محمد بن جرمان العواجي . بيشة . (الطائف : دار الحارثي للطباعة والنشر ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م) ، ص ١٢ وما بعدها .

(٦) لمزيد من التفاصيل عن بلدة جرش التي تقع في أعالي وادي بيشة - كما ذكر الهمداني - وهي توجد اليوم ضمن محافظتي خميس مشيط وأحد رفيدة بمنطقة عسير . الهمداني ، صفة ، ص ٢٥٦ ، غيثان بن علي جريس " تاريخ مخلاف جرش (عسير) خلال القرون الإسلامية الأولى " . مجلة العصور . مج (٩) ج (١) (رجب ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) ص ٦٣ - ٧٨ ، وللمؤلف نفسه . دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيلة (ق ١ - ق ١٠ هـ / ق ٧ - ق ١٦ م) . (الرياض : مطابع العبيكان ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م) ، ج ١ ، ص ٩٣ - ١٢٦ .

(٧) عبد الرحمن صادق الشريف . جغرافية المملكة العربية السعودية : إقليم جنوب غرب المملكة . (الرياض : دار المريخ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) ، ج ٢ ، ص ٤٣١ وما بعدها ، الجاسر " من خصائص بعض المدن ... " ، ص ٢١٠ ،

من سروات عبيدة (بلاد قحطان) جنوباً إلى بلاد خثعم وغامد في الشمال، وله روافد عديدة تتحدر إليه من بلاد قحطان وشهران وعسير ورجال الحجر وبلقرن وخثعم وشمران وغامد^(١)، ويعد من الأودية الكبرى في الجزيرة العربية إذا يبلغ طوله حوالي (٥٠٠) كم من أعالي بلاد السراة حتى يتصل بوادي الدواسر في نجد^(٢). وتتفاوت روافده في الصغر والكبر، ومن أهمها وأكبرها من الشمال إلى الجنوب وادي تباله، ووادي ترح، ووادي هرجاب، وهذه الأودية الثلاثة معروفة بهذه الأسماء منذ العصر الجاهلي^(٣)، وجميعها تتحدر من بلاد السروات الممتدة من ديار قحطان وشهران جنوباً إلى خثعم وشمران وغامد شمالاً^(٤). (انظر الخارطة المرفقة بالبحث).

تقع حاضرة بيشة عند الحوض الأدنى للوادي نفسه، وتشمل مساحة واسعة جداً من الحوض، وتتحصر بين مركزي تباله والحازمي، ونهاية السفوح الجبلية التابعة لبلاد الباحة والنماص وتومة غرباً، وشمال محافظة تثليث شرقاً^(٥). وتضاريس بيشة على هيئة هضبة داخلية يبلغ عرضها في طرفها الجنوبي نحو (٥٠) كم. ثم يتزايد هذا العرض باتجاه الشمال إلى نحو (١٠٠) كم، وتمتد طويلاً من الجنوب إلى الشمال نحو (١٨٠) كم^(٦)، وتتميز بيشة بموقعها المناسب في وسط سافلة الوادي، وفي موضع متوسط بالنسبة للهضبة، وللطرق القادمة من سروات منطقتي عسير والباحة^(٧)،

محمد بن جرمان العواجي. الآثار في محافظة بيشة (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م) ص ٢١ وما بعدها، وللمؤلف نفسه. بيشة، ص ١٣ وما بعدها.

(١) المراجع نفسها، بالإضافة إلى تجوال الباحث مرات عديدة في نواحي متفرقة من روافد وادي بيشة الممتدة من بلاد قحطان جنوباً إلى بلاد خثعم وشمران وغامد شمالاً.

(٢) الشريف. جغرافية المملكة، ج ٢، ص ٤٣١ - ٤٣٢، الجاسر "من خصائص بعض المدن ..."، ص ٢١٠.

(٣) الهمداني، صفة، ص ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٧٩، ٤٢٧، ٤٣٠، ياقوت، معجم، ج ١، ص ٥٢٨، مسفر بن سعد الخثعمي. موسوعة الآثار والتراث والمعالم السياحية في منطقة عسير (دراسة توثيقية). بيشة (جدة: مطابع السروات، ١٤٢٩ هـ)، ص ٢٢ وما بعدها.

(٤) المصادر والمراجع نفسها. جولات الباحث ومشاهداته خلال شهري المحرم وصفر عام (١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م). وللمزيد انظر: حمد الجاسر. في سراة غامد وزهران. (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م)، ص ٣٦٢.

(٥) الشريف، جغرافية المملكة، ص ٤٤١ وما بعدها.

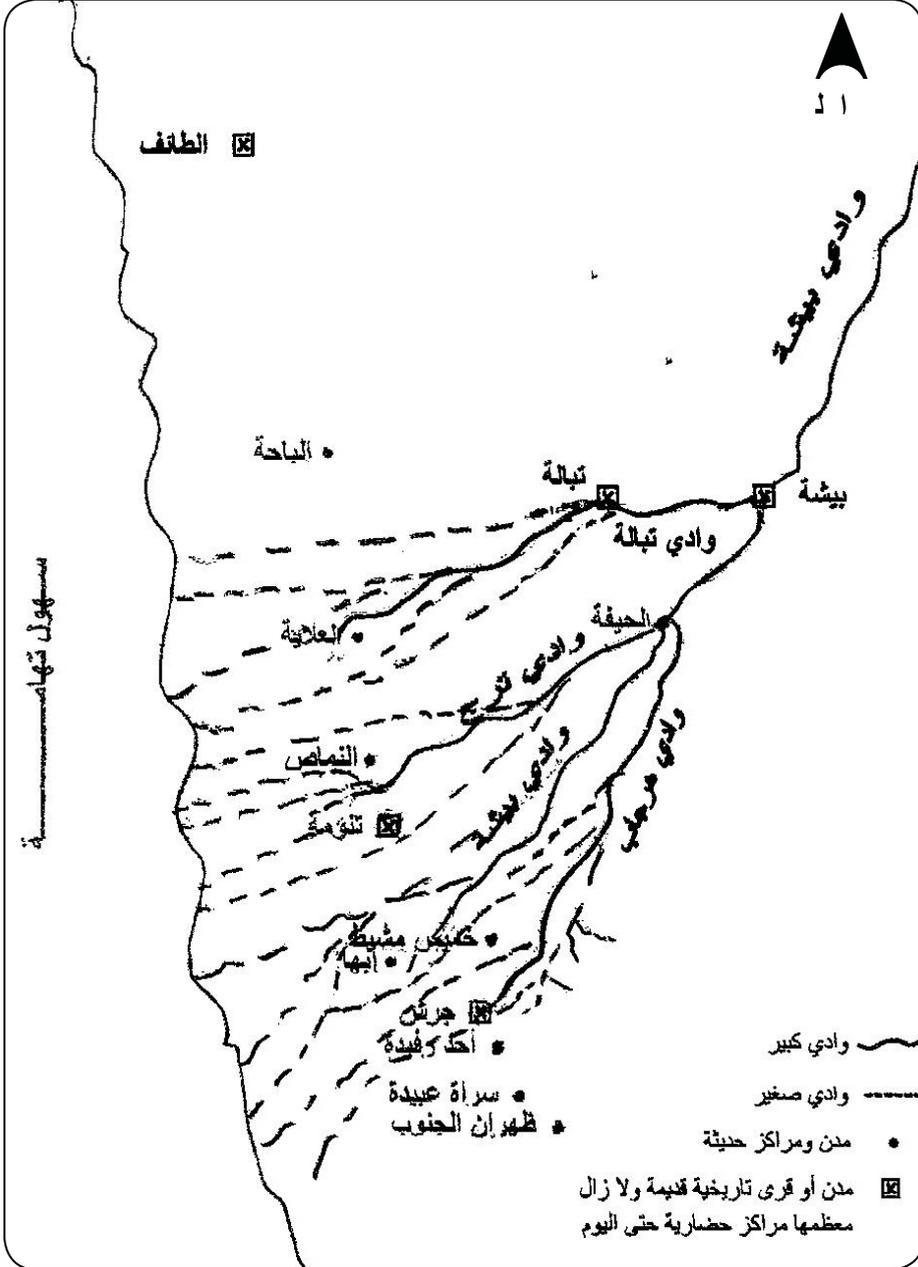
(٦) المرجع نفسه. انظر أيضاً: الجاسر. "من خصائص بعض المدن والقرى ..."، ص ٢١٠، العواجي، بيشة، ص ١١ وما بعدها، وللمؤلف نفسه. الآثار في محافظة بيشة، ص ٢١ - ٤٤.

(٧) المراجع نفسها. جولات ومشاهدات الباحث لمنطقة بيشة وروافد وادبها المنحدرة من أعالي السروات خلال عامي (١٤٢٨ - ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ م).

وبالتالي كانت عقدة مواصلات جيدة لطرق القوافل القديمة^(١).

وبيشة ذات موقع استراتيجي هام على طريق البخور، إذ أنها ملتقى الطرق المتجهة من بلاد اليمن، وعمان، ووادي الدواسر، ونجد، والحجاز، وعدها العرب مفتاح اليمن^(٢). كما أشار إليها بعض المؤلفين القدامى كالهجري نقلاً عن الرشاطي، حيث نبه أولهما إلى أهميتها كمحطة تقع على الطريق بين مكة واليمن^(٣)، وأشار إلى أنها قرية كبيرة^(٤)، وأورد عن أبي حنيفة قوله "بيشة واد من أودية السراة يصب في نجد خصب عامر"^(٥)، ثم قال: "ليست قرية. بل منطقة واسعة يخترقها واد عظيم ذو فروع كثيرة"^(٦). بينما أضاف الهمداني إلى "أن جرش (عسير اليوم) رأس وادي بيشة"^(٧). ويعد ما ذكره الهجري والهمداني ومن جاء بعدهما من المتقدمين متطابقاً مع واقع وادي بيشة الذي يشمل أغلب سفوح سروات عسير الشرقية، وتأتي حاضرة بيشة عند الحوض الأدنى من هذا الوادي^(٨). ويشير ابن عبد ربه والبكري إلى وصف جرير بن عبد الله البجلي "رضي الله عنه" لبيشة عندما قدم على الرسول ﷺ في السنة العاشرة الهجرية.

- (١) الهمداني، صفة، ص ٣٢٩، ٢٥٦، ٤٢٧. ولأهمية أرض بيشة ووقوعها على الطريق التجاري الرئيسي الذي يربط الحجاز باليمن، انظر: أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة. كتاب المسالك والممالك. تحقيق م. دي. خوية (ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٦هـ/١٨٨٩م)، ص ١٢٣ وما بعدها، أحمد اليعقوبي. كتاب البلدان. تحقيق م. دي. خوية (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٩٢م) ص ٣١٦ وما بعدها، أبو اسحاق الحربي. كتاب المناسك، وأماكن طرق الحج ومعالج الجزيرة. تحقيق حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٦٤٤، العمري، طريق البخور، ص ١٠١ وما بعدها.
- (٢) حمد الجاسر. أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع. (الرياض: دار اليمامة. د. ت.)، ص ٢١٦-٢١٧، علي ابن ابراهيم الحربي. "طريق الحج اليمني في أرجوزة الرداعي. مجلة العرب. ج (٥،٦) س (٣٢) (الرياض، ١٩٩٧م)، ص ٤٠٢، فؤاد حمزة. في بلاد عسير. (القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥١م)، ص ٥٢، ٦١، العمري، طريق البخور، ص ٧٥-٧٦.
- (٣) انظر هارون زكريا الهجري. التعليقات والنوادر. ترتيب حمد الجاسر (الرياض: د. ن. ١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ج٤، ص ١٦٨٧. حاشية رقم (٢).
- (٤) المصدر نفسه.
- (٥) المصدر نفسه.
- (٦) المصدر نفسه. وللمزيد عن وادي بيشة انظر: العمري. طريق البخور، ص ٧٤-٧٦، الحربي "طريق الحج..."، ص ٤٠٤، فهد بن عبد الله السبيعي. "مواضع بين بيشة وتثليث" مجلة العرب. ح (٥،٦) س (٣١) الرياض، ١٩٩٦م)، ص ٣٨١.
- (٧) الهمداني، صفة، ص ٢٥٦.
- (٨) مشاهدات الباحث خلال شهري المحرم وصفر عام (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) للمزيد انظر: الشريف، جغرافية المملكة، ج٢، ص ٤٣١-٤٤٦.



خارطة رقم (١)

خارطة توضيحية لروافد وادي بيشة الرئيسية وأهم المراكز الحضارية على هذا الوادي قديماً وحديثاً

فقال له الرسول ﷺ " أين منزلك ؟ فقال : بأكناف بيشة " (١) وفي رواية أخرى أنه سأله عن مكان إقامته في بيشة فقال : " سهل ودُكداك ، وسلم وأراك وحمض وعلاك ، إلى نخلة ونخلة ماؤها ينبوع ، وجنابها مربع وشتاؤها ربيع ، وماؤها يربيع لا يقام ما تحتها ولا يحسر صاحبها ولا يعزب سارحها " فقال: الرسول ﷺ " خير الماء الشبم وخير المال الغنم وخير المراعي الأراك والسلم ، إذا أخلف كان لجينا ، وإذا سقط كان دريناً ، وإذا أكل كان لبيناً " (٢). ومما سبق يتضح لنا عدة أمور نذكر منها :

١. أن موقع بيشة يأتي عند مصب العديد من أودية السراة الواقعة بين زهران وقحطان ، والناظر في أرجاء هذه البلاد يقف على جميع مقومات الحياة الطيبة من وفرة مياه ومزروعات وحيوانات ، كما يلاحظ توسط هذه البلاد بين اليمن والحجاز وتأثرها بالأوضاع السياسية والحضارية في هاتين الناحيتين .

٢. أن موقع حاضرة بيشة يمتاز أيضاً بالأهمية الاستراتيجية ، فالقول بأنها مفتاح اليمن قد يكون حكماً قاصراً إذ هي مفتاح لليمن ، ونجد ، والحجاز وسروات الأزدي من زهران إلى نجران ، ومن يدرس تاريخ هذه البلاد يجدها منذ العصر الجاهلي وعلى مر العصور الإسلامية تأتي محور ارتكاز لهذه النواحي الأربع فمنها وإليها يذهب ويعود التجار ، وكانت بمثابة حلقة الوصل بين هذه الجهات المتباعدة .

٣. أن ما ذكره جرير بن عبد الله البجلي (رضي الله عنه) ينسجم مع واقع الحال فهذه البلاد غنية بمواردها الاقتصادية وخاصة الحيوانية والزراعية ، بل كانت ولا زالت أيضاً مقر العديد من الأجناس والعشائر والبطون . وإذا كان

(١) أحمد بن عبد ربه . العقد الفريد . تحقيق مفيد محمد قميحة (بيروت : دار الكتاب العلمية ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٢ م) ، ج ١ ، ٢٠٧ ، البكري . معجم ، مج ١ ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

(٢) الددك : ما تلبد من الرمل بالأرض ولم يرتفع كثيرا . الأراك : الشجر له عناقيد كالغنب . العلاك : شجر ينبت بنواحي الحجاز . ماؤها ينبوع : أي مياه نابعة ومتوفرة . وجنابها مربع ، وماؤها يربيع : أي أرضها خصبة ومياهها جارية . لا يقام ماتحها ، ولا يحسر صاحبها ، ولا يعزب سارحها : أي لا يتعب ولا يتوقف المستقي من مياه هذه البلاد لوفرتها وكثرتها ، وكذلك لا يعزب رعاة الأغنام في أماكن رعيهم لوفرة الأعشاب وخصوبة الأرض التي تكفيهم لرعي مواشهم والرجوع إلى منازلهم . الشبم : البارد . وخير المال الغنم : أي الماشية من الأغنام . والأراك والسلم : أي شجر الأراك والسلم . إذا أخلف كان لجينا : أخلف ، أخرج الخلفة : وهو ورق يخرج بعد الورق الأول في فصل الصيف . واللجين : الخبط وذلك أن ورق السلم والأراك يخبط حتى يسقط ويجف ، ثم يدق حتى يتلجن ، أي يلتزج . والدرين واللبين : الدرين حطام المرعى إذا تناثر وسقط على الأرض . واللبين ، أي مدرا للبن كثيرا له ، ويقصد بذلك إذا أكلت الأغنام من أشجار الأراك والسلم غزرت ألبانها . للمزيد عن معاني هذه المصطلحات انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ١ ، ص ٢٠٧ الحواشي (٣ - ٥) . انظر أيضا : لسان العرب ، لابن منظور ، وكذلك ، كتاب النبات ، لأبي حنيفة الدينوري .

الصحابي جرير (رضي الله عنه) وصفها بهذا الوصف الدقيق ، فذلك يدل على معرفته بأحوالها المناخية والاقتصادية ، وهو من قبيلة بجيلة التي كانت تعيش خارج بلاد بيشة^(١) ، ولكن جرير (رضي الله عنه) ، كان ساكناً فيها لوفرة خيراتها ، وبقي على صلات ببلاد السراة بعد دخوله الإسلام ، فحارب مشركيها ، وهدم أصنامهم وبخاصة قبيلة خثعم التي كان يسكن العديد من عشائرها على بعض روافد بيشة الشمالية^(٢) .

ثالثاً : التركيبة السكانية :

غالبية سكان حاضرة بيشة من القبائل العربية القحطانية والعدنانية ، ومدونو التراث القدماء يذكرون هذه البلدة ويصفون حجمها وسكانها فقداً يصفها ، فيقول هي: " قرية عظيمة كثيرة الأهل مضرية وقيسية"^(٣) ويشير عرام إلى تباله التي وادها واحد من روافد بيشة الرئيسية فيذكر بها منبر ، ويقول " أهلها سلول ، وعقيل ، وغامد ، وعامر بن ربيعة"^(٤) ويضيف قائلاً " وفي حد تباله قرية يقال لها بيشة"^(٥) ويشير أبو علي الهجري إلى بلدة بيشة فيذكر أنها ذات قرى كثيرة وسكانها أكثرهم من بني عامر بن هوازن ويخالطهم قبائل من خثعم^(٦) وذكر الإدريسي أنها "مدينة صغيرة متحضرة"^(٧) ويورد الهمداني بعض أسماء

(١) للمزيد عن الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي وعن قبيلة بجيلة ، انظر : محمد بن جرير الطبري . تاريخ الأمم والملوك . (بيروت : دار سويدان ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م) ، ج ٣ ، ٣٦٥ ، ٤٦٠ ، ٤٧١ ، ٥٨١ ، ابن عبد ربه العنقدي ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ، عبد الرحمن بن خلدون . تاريخ ابن خلدون . (بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ، ج ٣ ، ٥٢٣ .

(٢) المصادر نفسها ، وللمزيد انظر : عبد الملك بن هشام . السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا وآخرين (بيروت : دار القلم ، د . ت) ، ج ١ ، ص ٨٨ ، محمد بن سعد . الطبقات الكبرى (بيروت : دار صادر ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ، ج ١ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، جمال الدين بن الجوزي . صفة الصفوة . تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي (حلب : دار الوعي ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م) ، ج ١ ، ٧٤١ .

(٣) أبو الفرج قدامة . نبد من كتاب الخراج وصناعة الكتاب . تحقيق م . دي . خوية (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٨٩ م) ، ص ١٨٨ .

(٤) عرام بن الأصغ السلمي . كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما بنيت عليها من الأشجار وما فيها من المياه . تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م) ، ص ٤٢١ . وللمزيد عن تباله ، انظر : غيثان بن علي بن جريس " تباله وأهميتها التاريخية والحضارية خلال القرون الإسلامية الأولى " بحث منشور في مداوات اللقاء العلمي السنوي الثامن لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، المنعقدة في مدينة المنامة بمملكة البحرين . (ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ / أبريل ٢٠٠٧ م) ، ص ١٧٩ - ٢١٥ .

(٥) عرام السلمي ، كتاب : أسماء جبال تهامة ، ص ٤٢١ .

(٦) أبو علي الهجري ، التعليقات ، ج ٤ ، ص ١٦٨٧ .

(٧) محمد بن محمد الإدريسي . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

البطون الأزديّة التي كانت تسكن على أطراف بيشة الغربية فيقول "مرع لبنى شهر نجدية مما يصالي بيشة"^(١). ويذكر أن شهران وهي فرع من خثعم في سراة بيشة وترج^(٢)، ويشير إلى سراة الحجر ثم يقول "وشرقها ما جاور بيشة من بلد خثعم"^(٣) ويذكر ياقوت أن "ديار بني سلول بيشة"^(٤) ويضيف قائلاً "بيشة بطون من الناس كثيرة من خثعم، وهلال، وسواءة بن عامر بن صعصعة، وسلول، وعقيل، والضباب، وقريش وهم بنوهاشم، لهم المعمل"^(٥) ويورد ناصر خسرو تفصيلات عن الأجزاء الشرقية من بلاد السرو بما فيها وادي بيشة فيقول "في هذا الجزء قرى كثيرة، وبواد لا تدخل تحت الحصر، وفي كل بادية حاكم مستبد لا يخضع لأي سلطة مركزية"^(٦)، وذهب ابن الجاور إلى ذكر معلومات أكثر عن قبائل السرو، وكثرة قراهم، وهيمنة شيوخ القبائل على ديارهم^(٧).

ومصادر أخرى تذكر أن بعض عشائر من قبيلة باهلة العدنانية كانت تستوطن بيشة، ونجد الرسول ﷺ ي كاتب بعض شيوخ تلك العشائر في حاضرة بيشة وباديتها، ويحثهم على تطبيق شرع الله في بلادهم^(٨). ومصادر أخرى تشير إلى وجود العبيد الذين هم من أصول زنجية، كانوا قد جلبوا من الحجاز وغيرها لأجل العمل في مواطن الزراعة وبعض الحرف والمهن الأخرى^(٩) وتذكر بعض الروايات أن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٢ م) أمر والي مكة بإرسال (٢٠٠) زنجي مع نسائهم إلى بيشة كي يعملوا في بعض قطاعات الدولة الزراعية هناك^(١٠). ولكون حاضرة بيشة على طريق الحج اليمني فمن المؤكد أن التجار كانوا يجلبون معهم العبيد في ذهابهم وإيابهم من اليمن والحجاز^(١١).

- (١) الهمداني، صفة، ص ٢٦١، ٢٦٢.
- (٢) المصدر نفسه، ص ٦٢، ٢٥٨.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٢٦١. وللمزيد انظر: غيثان بن علي بن جريس "بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب" مجلة الدارة. عدد (٢) سنة (١٩) ربيع الآخر والجمادتان (١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) ص ٧٦ - ١١١.
- (٤) ياقوت، معجم، ج ١، ص ٥٢٩.
- (٥) المصدر نفسه.
- (٦) أبو معين الدين ناصر خسرو. سفرنامه (رحلة ناصر خسرو). ترجمه من الفارسية وحققه أحمد خالد البدلي (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٩٨٣ م) ص ١٤١ - ١٤٢.
- (٧) جمال الدين يوسف بن الجاور. صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى: تاريخ المستبصر. تحقيق أوسكر. لوفغرين (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٥١ - ١٩٥٤ م)، ج ١، ص ٢٦ - ٢٧.
- (٨) ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٤٨.
- (٩) ياقوت، معجم، ج ٥، ص ١٥٨.
- (١٠) المصدر نفسه.
- (١١) الإدريسي، نزهة، ج ١، ص ١٤٦، العمري، طريق البخور، ص ١٠١.

وإن وجد عنصر العبيد وربما الموالي في بيشة ففي اعتقادنا أنهم لازالوا أقلية بين طبقات المجتمع ، والسواد الأعظم من السكان من القبائل التي استوطنت بيشة منذ القدم ، وغالبيتهم من قبيلة خثعم التي تفرعت بطونها واستقرت في أجزاء عديدة من وادي بيشة . ولا زالت بطون من هذه القبيلة مثل عشائر شهران العريضة تسكن أجزاء من بيشة إلى اليوم ^(١) . كذلك سكنت سلول العدنانية بيشة منذ القدم وتعيش بطون منها في وسط حاضرة بيشة حتى الآن ^(٢) . أما باهلة التي كاتبها الرسول ﷺ فلا نجد لهم وجوداً اليوم في بيشة ، وربما التحقوا بإخوانهم في نجد ^(٣) ، علماً بأنهم كانوا من أصحاب السلطة الرئيسية في بيشة في عهد الرسول ﷺ ^(٤) .

والفاحص لروافد وادي بيشة التي تسقط من سفوح السروات الشرقية يجد أن معظم سكان هذه البلاد من الأزد ، ويطلق عليهم في كتب الأنساب والتراث (أزد السراة) ، وبخاصة بلاد الحجر (بللحمر ، وبللسمر ، وبنو شهر ، وبنو عمرو) ، وبلقرن ، وشمران ، وخثعم ، وغامد وزهران ، فهم وإن كانوا ولا زالوا مقيمين في أوطانهم الرئيسية في السروات إلا أن البعض منهم استوطن بيشة من قديم الزمان وما زالوا يعيشون في أكفافها ، والسبب الرئيس في استيطانها هو غنى أرضها وكثرة خيراتها ^(٥) .

رابعاً : بيشة تاريخياً :

تعد بيشة موطناً لعدد من العشائر العربية الجاهلية ، وعند ظهور الإسلام في الحجاز ، امتدت دعوة الرسول ﷺ إلى بلاد السراة ، وكان الطفيل بن عمرو الدوسي

(١) الهمداني ، صفة ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، لمزيد من الإيضاح عن قبيلة خثعم ، وكذلك العديد من عشائر شهران العريضة الحالية التي تنسب في تلك القبيلة العربية المأجدة ، انظر: محمد بن جرمان العواجي. تاريخ بني خثعم وبلادهم في الماضي والحاضر . (الطائفة : دار الحارثي للطباعة والنشر ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م) ، ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) ياقوت ، معجم ، ج ١ ، ص ٥٢٩ . زار الباحث العديد من أعيان ووجهاء منطقة بيشة ، والتقى ببعض المتعلمين والمتقنين من أبناء قبائل بيشة ، وحصل على تفصيلات كثيرة عن بطونها وأخاذها وعشائرها ، وذلك في شهري ذي العقدة وذي الحجة من عام (١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م) .

(٣) لمزيد من التفصيلات عن قبيلة باهلة / انظر : حمد الجاسر " تحديد منازل القبائل القديمة على ضوء أشعارها " مجلة العرب . مج (٧) ، ج (١١) السنة (٧) جمادى الأولى ١٣٩٢ هـ / يونيو ١٩٧٣ م) ، ص ٨٢٩ ، المؤلف نفسه " باهلة ... القبيلة المهضومة القدر " مج (٢١) ، ج (٧٠٨) السنة (٢١) (محرم وصفر ١٤٠٧ هـ / سبتمبر وأكتوبر ١٩٨٦ م) ، ٤٣٣ - ٤٣٧ .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٥) لمزيد من التفصيلات عن سكان السروات من قحطان إلى غامد وزهران ، وعن البطون العديدة التي تسكن على روافد وادي بيشة ، انظر: الهمداني ، صفة ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ - ٢٥٨ ، ٢٧٩ ، البكري ، معجم ، مج ١ ، ج ١ - ٢ ، ص ٢٧٦ ، ياقوت ، معجم ، ج ١ ، ص ١٢٦ . ابن جريس " بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني " ص ١٢٩ وما بعدها .

من أوائل من دخل الإسلام من تلك النواحي^(١) وجاء من بعده الصحابي الجليل جرير بن عبد الله البجلي الذي أسلم وحسن إسلامه في السنة العاشرة^(٢). وجرير والطفيل أبليا بلاءً حسناً في نشر الإسلام في بلاد غامد وخنعم وما جاورها ، وسعيها إلى محاربة المشركين وتحطيم أصنامهم وتفريق جمعهم^(٣)، وقد امتد جهاد جرير إلى الخثعميين المشركين في وادي تبالة واختار الرسول ﷺ جرير البجلي لمقاتلة خثعم وهدم صنمهم ذي الخلصة ، وهذا الاختيار يعود إلى معرفة جرير بأراضي الخثعميين^(٤) فكان يستوطن ديارهم من بيشة ، وساعده معرفته بحزونها ومسالكها وعلمه بأهلها وعشائرها في هزيمتهم والانتصار عليهم^(٥) ويتضح ذلك من قول جرير للرسول ﷺ الذي ذكر عند مقابلته للرسول ﷺ أن الإسلام انتشر في عموم أرض السراة ولم يبق إلا صنم ذي الخلصة في أرض خثعم ، فأرسله النبي الكريم إلى هدمه وقام بالمهمة على خير وجه ، وعاد إلى الرسول ﷺ فقال " يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد هدمته.... وما صدنا عنه أحد"^(٦).

وكان عموم سكان وادي بيشة خاصة الخثعميين من المدافعين عن هذا الصنم ، والمتادين له أثناء ممارسة طقوسهم وعباداتهم^(٧) ويشير ابن سعد إلى أنه بعد هدم صنم ذي الخلصة وفد عثث بن زحر وأنس بن مدرك الخثعمي في رجال من خثعم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: "أما بالله ورسوله ، وما جاء من عند الله ، فاكتب لنا كتاباً نتبع ما فيه ، فكتب لهم كتاباً"^(٨) ، وكان نص هذا الكتاب على النحو التالي: " هذا

(١) ابن هشام - السيرة ، ج ٢ ، ص ٢١ - ٢٥ ، ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ١ ، ص ٦٠٠ وما بعدها ، عز الدين علي بن الأثير . أسد الغابة في معرفة الصحابة (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د . ت) ج ٣ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) للمزيد انظر : ابن هشام ، السيرة ج ١ ، ص ٨٨ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٤٧ ، ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ١ ، ص ٧٤١ .

(٣) المصادر نفسها . وللمزيد انظر : محمد عمر الواقدي . كتاب المغازي . تحقيق مارسدن جونس (بيروت : عالم الكتب ، د . ت) ، ج ٣ ، ص ٩٢٣ ، الجاسر . في سرة غامد وزهران ، ص ٢٢٤ .

(٤) المصادر والمراجع نفسها . ولزيد من التفصيلات عن صنم ذي الخلصة وكيف استطاع جرير بن عبد الله البجلي تدميره انظر : محمد عبد الله الأزرق . أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . تحقيق رشدي ملحس (مكة المكرمة : مطابع دار الثقافة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، ج ١ ، ص ١٢٤ . وهناك تعليقات جيدة للمحقق في آخر الجزء الأول ، ص ٣٧٥ وما بعدها . ابن جريس " تبالة ... " ، ص ١٨٣ وما بعدها .

(٥) المصادر نفسها . وللمزيد انظر : البكري ، معجم ، مج ١ ، ج ١ ، ص ٢٩٤ ، ابن عبد ربه ، العقد ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

(٦) محمد بن إسماعيل البخاري . صحيح البخاري (بيروت : دار العربية للطباعة والنشر ، د . ت) ، مج ٢ ، ج ٥ ، ص ١١١ - ١١٢ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(٧) المصدران نفسهما .

(٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

كتاب من محمد رسول الله لختعم من حاضرة بيشة وباديتهما ، إن كل دم أصبتموه في الجاهلية فهو عنكم موضوع ، ومن أسلم منكم طوعاً أو كرهاً في يده حرث من خيار أو عرار تسقيه السماء ... فله نشره وأكله ، وعليهم في كل سيح العشر ، وكل غرب نصف العشر"^(١) . ويذكر أيضاً أن الحارث بن عبد شمس الخثعمي خرج من أعالي بيشة إلى النبي ﷺ وأخذ لجميع أصحابه الأمان على دمائهم وأموالهم فكتب له الرسول ﷺ كتاباً وأباحهم في بلادهم"^(٢) .

وبعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة جاء مطرف بن الكاهن الباهلي من بيشة حتى قابل الرسول ﷺ في الحجاز فأعلن إسلامه ، فأمنه الرسول ﷺ وأعطاه كتاباً فيه فرائض الصدقات قال فيه : " هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ، ولمن سكن بيشة من باهلة ، إن من أحيا أرضاً مواتاً بيضاء فيها منافع الأنعام ومراح فهي له وعليهم في كل (٣٠) من البقر فارض ، وفي كل (٤٠) من الغنم شاة ، وفي كل (٥٠) من الإبل ثاغية مسنة ، وليس للمصدق أن يصدقها إلا في مراعيها ، وهم آمنون بأمان الله"^(٣) . وفي رواية أخرى تذكر أن مطرف بن خالد بن نضلة الباهلي ، قدم على النبي الكريم ﷺ فكتب له كتاباً ولم يرو نص الكتاب"^(٤) . ويذكر أيضاً أن نهشل بن مالك الباهلي استلم كتاباً من رسول الله ﷺ يحثه وقومه على إقامة شرائع الإسلام ، والالتزام بما جاء فيه ، ثم يقول : " وإذا فعلوا ذلك فهم آمنون بأمان الله ، وإن لهم أن لا يحشروا ولا يعشروا وعاملهم من أنفسهم"^(٥) .

ومن هذه الصلات بين الرسول ﷺ وأهل بيشة يتضح لنا أن الإسلام انتشر بينهم ، وأصبحوا على علم بحلاله وحرامه . وإذا كنا لا نجد وفادات أو مكاتبات من قبائل بيشة الأخرى ، لكن المؤكد أن معظمهم دخلوا الإسلام سلماً ، وهذا ما نجده عند البلاذري الذي يذكر إسلام أهل نواحي جرش وتبالة ، القاطنين في أعالي وادي بيشة"^(٦) . فقال : " أسلم أهل تبالة وجرش من غير قتال ، فأمرهم رسول الله ﷺ على ما أسلموا عليه ، وجعل على كل حالم ممن بهما من أهل الكتاب ديناراً ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين"^(٧) .

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٦ . للمزيد انظر : محمد حميد الله . مجموعة الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة . (بيروت : دار النفائس ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ، ص ٢٩١ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) ابن سعد ، طبقات ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٤) محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، ص ٢٩٢ .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، ص ٢٩٢-٢٩٣ .

(٦) أحمد بن يحيى البلاذري ، فتوح البلدان (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، ص ٧٠ .

(٧) المصدر نفسه .

وجاءت عصور الخلفاء الراشدين (١١-٤٠هـ/٦٣١-٦٦٠م)، ثم خلفاء بني أمية (٤١-١٣٢هـ/٦٦٠-٧٩٤م)، وبني العباس (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٩٤-١٢٥٨م)، فقل ذكر بيشة، ولم نعد نسمع عنها إلا شذرات قليلة جداً، وأحياناً روايات عامة على بلاد واسعة، وتشكل بيشة أحياناً جزءاً منها مثل: القول: (السراة، أو السروات، أو جنوبي الطائف، أو اليمن، أو نجد (اليمامة)، أو مخاليف (نجران، وجرش، وتبالة، والطائف)^(١). وكل هذه الألفاظ أسماء لمواطن تتفاوت في الكبر والصغر، وجميعها أو معظمها مجاورة لأرض بيشة أو قريبة منها^(٢). وقد أخرجنا في العقود الثلاثة الماضية العديد من الدراسات الأكاديمية المنشورة في مجلات وكتب علمية مختلفة، وذكرنا في تلك الدراسات العديد من المراكز الحضارية الواقعة إلى جنوب الطائف والممتدة إلى اليمن، وأشرنا أحياناً إلى بيشة حسب ما جاءت في بعض كتب التراث^(٣). وفي السنوات الأخيرة نشرنا أيضاً دراستين أكاديميتين مستقلتين عن جرش وتبالة وأوضحنا تاريخ هاتين الناحيتين اللتين تقعان على بعض روافد وادي بيشة^(٤). فالهمداني يصف جرش قائلاً "جرش رأس وادي بيشة"^(٥). وعرام يقول "وفي حد تبالة قرية يقال لها بيشة"^(٦). وأوردنا في هاتين الدراستين تفصيلات عن الوضع السياسي والإداري والحضاري لتبالة وجرش، ووجدنا

- (١) للمزيد انظر: ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٢٢، ١٣٦، ١٤٧، أبو بكر أحمد بن محمد الفقيه. كتاب البلدان. تحقيق م. دي. خوية (لیدن: مطبعة بريل ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤ م)، ص ٢١-٢٢، شمس الدين أبو عبد الله المقدسي. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق م. دي. خوية (لیدن: مطبعة بريل، ١٨٧٧م)، ص ١٠٤، ياقوت، معجم، ج ٢، ص ٢٠٤-٢٠٥، ابن الجاور، صفة بلاد اليمن، ج ١، ص ٢٦-٢٧.
- (٢) المصادر نفسها. وللمزيد انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج ١، ص ١٤٥، أبو عبد الله بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. تحقيق علي المنتصر الكتاني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ج ١، ص ١٨٢.
- (٣) للمزيد انظر: ابن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة، ج ١، ص ٢١ وما بعدها، وللمؤلف نفسه. دراسات في تاريخ إفريقيا. والحزيرة العربية خلال العصور الإسلامية (جازان: مطبوعات نادي جازان الأدبي، ١٤٢٨هـ/ ٢٢٧م)، ص ١٣ وما بعدها. وللمؤلف نفسه. دراسات في تاريخ الحجاز السياسي والحضاري خلال العصر الإسلامي من القرن الأول الهجري إلى القرن العاشر الهجري / السابع الميلادي إلى السادس عشر الميلادي (مكة المكرمة: مطبوعات نادي مكة الثقافي والأدبي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص ٢٥٢ وما بعدها. وللمؤلف نفسه. بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٢-١٤هـ/ ١٩-٢٠م). الطبعة الثانية (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، ص ٢٠ وما بعدها، وللمؤلف نفسه "رسائل الإمام القاسم بن علي العياني إلى أهل عثر ونجران في أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بحث منشور في مداورات اللقاء العلمي السنوي السابع لجمعية التاريخ والأثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية. والمنعقد في مدينة المنامة بالبحرين (ربيع الأول ١٤٢٧هـ/ أبريل ٢٠٠٦م)، ص ١٩٨-٢٠٥..
- (٤) ابن جريس، "تاريخ مخلاف جرش" ص ٦٣ وما بعدها، للمؤلف نفسه "تبالة... ص ١٧٩ وما بعدها.
- (٥) الهمداني، صفة، ص ٢٥٦.
- (٦) عرام السلمي، ص ٤٢١.

ذكرهما أوسع من ذكر بيشة ، فالعديد من كتب التراث تذكرهما على أنهما ناحيتان أو مغلخافان واسعان يمتد نفوذهما إلى ما حولهما من البلاد ^(١) . وبعض الأمراء والولاة الذين كانوا يرسلون من قبل خلفاء المسلمين الأوائل كانوا يتخذون من هاتين البلديتين مقراً لهم ^(٢) . بل إنه في العديد من الأحداث السياسية ابتداءً بحروب الردة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) (١١-١٣هـ / ٦٣١-٦٣٣م) ^(٣) ، ثم ظهور بعض الثوار في اليمن أو الحجاز في بعض عهود خلفاء بني أمية وبني العباس ، كانوا يتخذون من تباله وجرش مواطن انطلاق وميداناً لبعض حروبهم عندما يخرجون ذاهبين وآيبين بين اليمن والحجاز ^(٤) . والمتأمل في بعض المصادر الإسلامية المبكرة يلمس حرص معظمها على الإشارة إلى تبعية كل من تباله وجرش لولاة الحجاز، وفي مرات قليلة جداً يعين عليها الولاة مباشرة من قبل الخلفاء ، أما في معظم الأحيان فكان والي مكة هو الذي يتولى الإشراف عليها ، ويرسل إليها من يرى من رجاله ^(٥) .

ومن الدراسات الخاصة بجرش وتباله المتصلتين ببلدة بيشة من خلال اشتراكهم في واد واحد يحمل اسم (وادي بيشة) فإننا نرى في الدراسة التي بين أيدينا أنه لا داعي لإعادة الحديث عن الأوضاع السياسية والإدارية في بيشة وبخاصة في الأحداث العامة التي تجتمع فيه هذه النواحي الثلاث (جرش ، وتباله ، وبيشة) ^(٦) . علماً بأننا سوف نتطرق في سطور قادمة إلى بعض الجوانب السياسية التي لم ترد في هذين البحثين الأنفي الذكر ، ويدفعنا إلى عدم تكرار ما ورد في هاتين الدراستين في ثنايا هذا البحث عدة أسباب أهمها :

- (١) انظر المصادر والمراجع الواردة في الحواشي السابقة .
- (٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٢٦ ، ٤٨١ . ج ٧ ، ص ٢٠ ، ٩١ ، ٢٢٦ . تقي الدين محمد الفاسي . شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق لجنة من العلماء (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت) ، ج ٢ ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، الخثمي ، بيشة ، ص ٤٢ - ٤٥ ، غيثان بن علي بن جريس . نجران : دراسة تاريخية حضارية (ق ١ - ٤٤٤هـ / ق ١٠م -) (الرياض : مطابع العبيكان ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) ، ج ١ ، ص ١٢٠ وما بعدها .
- (٣) للمزيد عن حروب الردة ، انظر ، الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ ، وما بعدها .
- (٤) الطبري، ج ٧، ص ٢٧٤، ٢٩٢، ٥١٧ . ج ٨، ١٩٢، ٥٢٨ . ج ٩، ص ٢٧١، ابن جريس، نجران ، ج ١، ص ١١٢، ١٠٣ .
- (٥) للمزيد انظر ، غيثان بن علي بن جريس " الإمارة في الحجاز خلال العصر العباسي الأول ١٢٢ - ٢٢٢هـ / ٧٤٩ - ٨٤٦م " بحث باللغة الانجليزية منشور في مجلة العصور . مج (٧) ، ج (١) (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) ص ١٣ - ٢١ (١٢ - ٤١) . PP .
- (٦) حاولنا في هذا البحث الابتعاد عن تكرار المعلومات التي وردت في دراستي (جرش وتباله) وذلك لتقارب هذه النواحي مع بيشة ، بل تقع جميعها على وادي بيشة ، وهي متشابهة إلى حد ما في طبيعتها الجغرافية وتركيبتها السكانية .

١. جاءت بيشة قديماً أقل ذكراً من جرش وتبالة ، فأغلب الأحداث التي حدثت في هذه النواحي الثلاث كانت تذكر على التوالي في جرش ، ثم تبالة وأحياناً بيشة ، وربما وردت الناحيتان الأوليان دون الثالثة. وإذا ورد ذكر تبالة أو جرش وما يدور فيهما من أحداث آنذاك فإن الحديث يشمل بلاد بيشة ، لأن بلدة تبالة وهي وسط المخلاف لا تبعد عن مركز بلدة بيشة تجاه الشمال الغربي إلا حوالي (٥٠) كيلاً ، وبلدة جرش حوالي (١٥٠) كيلاً في الجهة الجنوبية الغربية. والولاة الذين كانوا يرسلون من قبل الخلفاء المسلمين الأوائل إلى هذه النواحي كانوا يتخذون من تبالة أو جرش مقراً لولايتهم ، وهم بدورهم يمدون نفوذهم إلى بيشة^(١).

٢. أشارت بعض كتب التراث المبكرة إلى النواحي التابعة لوالي مكة وكانت تبالة وجرش من المخاليف المذكورة والتابعة لأمير مكة بل ذكرت أن بيشة مخلاف من مخاليف مكة لكننا لا نجد من خلفاء المسلمين أو أمراء مكة الأول من يرسل والياً على بيشة بخلاف جرش وتبالة التي نقف على أسماء بعض الولاة أو الأمراء الذين تولوا سير الأمور فيهما^(٢).

٣. إذا حاولنا التطرق لسرد الأحداث التقليدية في التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط ، خاصة في اليمن والحجاز بهدف الإشارة إلى دور أهل بيشة في تلك الأحداث فلن نأتي بجديد ، لأننا ناقشنا ذلك إلى حد ما من قبل ، ومن أراد الاستزادة يمكنه الرجوع إلى هاتين الدراستين المنشورتين ، المشار إليهما آنفاً ، فضلاً على أننا بصدد جمع هاذين البحثين مع غيرهما من الأبحاث لتكون في كتاب واحد تحت عنوان: **دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيط** . (ق١٠ق١٠هـ / ق٦٠ق٦٧م) . الجزء الثاني .

٤. من الواضح أن تبالة وجرش كانت أكثر شهرةً من بيشة قديماً ، ولكن مع مرور العصور تحولت هاتان الناحيتان إلى شيء مجهول ، وبقي وادي بيشة ، وبلدة بيشة تحمل الاسم نفسه ، بل أصبح لها تاريخ مدون ومحفوظ وبخاصة في العصر الحديث والمعاصر . وربما أدى غنى واحة بيشة بمياهها وخيراتها وموقعها الاستراتيجي بين

(١) انظر تفصيلات أكثر عن تبالة وجرش في الدراستين المنشورتين في كتابنا: دراسات في تاريخ تهامة والسراة (ق١٠ق١٠هـ / ق٦٧ق١٦م) (الجزءان الأول والثاني) .

(٢) انظر: ابن خرداذبة ، ص ١٢٣ ، المقدسي ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٨ ، البلاذري ، الفتوح ، ص ٨٠ ، ٨١ ، الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٦ ، ١٤٧ ، ج ٦ ، ص ٤٣٣ ، ٤٤١ ، ٥٦٣ . ج ٧ ، ص ١٢١ ، ١٥٥ ، الفاسي ، ج ٢ ، ص ١٦٥ وما بعدها .

اليمن والحجاز ونجد والسرورات إلى جعلها تحتفظ بالاسم والتاريخ معاً^(١). أما تبالة وجرش فلا زالت أرضهما من روافد بيشة ، وإن تقلص تاريخ الأولى فأصبح محصوراً في قرية صغيرة تعرف بـ (تبالة) على ضفاف وادي تبالة أما جرش فقد اختفى اسمها تماماً^(٢).

وهناك أحداث سياسية أخرى حول بيشة ، لم ترد في الدراستين الخاصتين بـ (تبالة وجرش) نجلها وناقش أهمها في السطور التالية :-

وردت تبعية تبالة وجرش وما حولهما للحجاز ، وورد ذكر أسماء ولاية تولوا هذه البلاد خلال القرون الإسلامية الأولى لكننا لا نجد معلومات واضحة تذكر وضع بيشة السياسي والإداري ، ولكن نجد إشارات بسيطة تعكس بعض الملامح السياسية ، منها ما ذكر في مصادر مبكرة ولدينا قناعة لا بأس بها حول صحتها ، وهناك أيضاً إشارات أخرى وردت في مصادر متأخرة جداً ، وسوف نتوقف معها قليلاً ونقول رأينا حول مصداقيتها^(٣).

أورد ياقوت الحموي خبراً عن بعض نواحي بيشة في عصر الدولة الأموية وما تتصف به أرضها من الخيرات الزراعية ، فقال: "المعمل قرية من أعمال مكة ، قال أبو منصور: - لبني هاشم في وادي بيشة ملك يقال: المعمل وكان أول أمر المعمل أنه كان بُني من بيشة بين سلول وخثعم فيحضر السلوليون ويضعون فيه الفسيل فيجيء الخثعميون فيزيلون الفسيل ، ولا يزال بينهم قتال وضرب فكان ذلك المكان يسمى مطلوباً فلما رأى ذلك العجير السلولي تخوف أن يقع بين الناس شر هو أعظم من ذلك ، فأخذ من طينته ومائه ، ثم ارتحل حتى لحق بالخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٢ م) ووصف له صفته ، وأتاه بمائه وطينته ، وماؤه عذب ، فقال له هشام: - كم بين الشمس

(١) المتجول في نواحي جرش وتبالة وبيشة . يجد أن الناحيتين الأولىين لا زال لهما بعض الآثار ، مع أن الأولى اختفى اسمها ودخلت ضمن محافظتي أحد رفيدة وخميس مشيط ، بل صارت هذه المدينة التاريخية بين العديد من الأحياء السكنية الحديثة في هاتين المحافظتين . أما تبالة فلا زالت تحتفظ باسمها مع أنها صارت مركزاً من المراكز التابعة لمحافظة بيشة . للمزيد انظر ، العواجي ، بيشة ، ص ١٣ وما بعدها ، الخثعمي ، بيشة ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) انظر المصادر والمراجع المدونة في الحواشي السابقة .

(٣) هناك مصادر موثوقة ومبكرة أشارت إلى تاريخ وحضارة البلاد الواقعة إلى الجنوب من مكة المكرمة والطائف خلال القرون الإسلامية الأولى . وهناك مراجع ثانوية أرخت لتلك الفترة ويشوبها الكثير من الغموض وبخاصة ما ذكر عن الدولة اليزيدية التي استوطنت عسير من القرن الهجري الثاني ، لكننا لا نجد لها ذكراً واضحاً وجلياً في كتب التراث الإسلامي المبكرة . وللأسف جاء بعض الباحثين المتأخرين فأخذوا بتلك الأقوال والروايات المتأخرة عن هذه الدولة المزعومة دون أن يحققوا في مصداقيتها وضحة ما ذكر عنها .

وهذا الماء ؟ قال: أبعد ما يكون بعده، قال: فأين هذا الطين؟ قال: في الماء وأخبره بما في جوف بيشة، وبيشة من أعمال مكة... وأخبره بما في بيشة والأودية التي معها من النخل والفسيل، وأخبره أن ذلك يحتمل نقل عشرة آلاف فسيلة في يوم واحد، فأرسل هشام إلى أمير مكة، أن يشتري (٢٠٠) زنجي، ويجعل مع كل زنجي امرأته، ثم يحملهم حتى يضعهم بمطلوب، وينقل إليهم الفسيل فيضعونه بمطلوب، فلما رأى الناس ذلك قالوا: إن مطلوب معمل يعمل فيه، فذهب اسمه المعمل إلى اليوم^(١).

وتشير بعض المصادر المبكرة إلى ثورة ابن الهيصم بن عبد المجيد الهمداني التي ظهرت في اليمن خلال عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) وامتد شررها شمالاً حتى وصلت بلاد بيشة، لكن لا نجد في المصادر الأولية تفصيلات حول دور أهل بيشة في صد هجمات هذا الثائر، إلا أن الخليفة هارون الرشيد في عام (١٨٩هـ/٨٠٤م) أرسل جيشاً بقيادة مولاة حماد البربري لمواجهة هؤلاء الثوار في بيشة وما والاها جنوباً، واستطاع أن يهزمهم ويقضي عليهم^(٢).

وتذكر روايات أخرى متأخرة قيام دويلة أموية في عسير خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وتؤكد هذه المصادر على ظهور بعض رجالات هذه السلطة بالعديد من البطولات التي سيطروا فيها على معظم بلاد عسير وتصدوا لبعض الهجمات التي وصلتها من الأئمة الزيدية في صعدة وصنعاء، أو من القرامطة الذين اجتاحتها مناطق عديدة في الجزيرة العربية خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، أو من بعض القرى والقبائل المجاورة وكل هذه التفصيلات وردت في مصادر ومراجع صدرت في العصر الحديث، وقد عملنا جاهدين على تقصي مدى صحة هذه الروايات في المصادر التاريخية المبكرة فاتضح لنا:-

١. ما قيل عن قيام دويلة أموية في بلاد عسير امتد نفوذها إلى أرض بيشة وغيرها لا نجد لها ذكراً في أمهات المصادر الأولى، مع أن المذكور عن هذه الدويلة، التي يذكر أنها تنتسب إلى الخليفة يزيد بن معاوية (٦١-٦٤هـ/٦٨٠-٦٨٣م) قد قوي

(١) ياقوت، معجم، ج ٥، ص ١٥٨. ولمزيد من الإيضاح عن المكان المسمى (مطلوب) انظر، ياقوت، معجم، ج ٥ ص ١٥٠.

(٢) الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٧٢، ٢٢٢. ويذكر أن الهيصم تصدى لجيوش بني العباس وفي النهاية استطاعت القبض عليه في بلاد بيشة ثم ساقوه إلى الرشيد في العراق فضرب عنقه في جماعة من أصحابه. انظر، القاضي عبد الله الجرافي اليمني. مقتطف من تاريخ اليمن (بيروت: منشورات العصر الحديث، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ٩٩ - ١٠٠. ويذكر الطبري أن الرشيد ولى حماد البربري اليمن ومكة عام (١٨٤هـ/٨٠٠م)، وفي عام (١٩١هـ/٨٠٦م) استطاع حماد القبض على الهيصم وإرساله إلى الرشيد. الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ٢٧٢، ٢٢٢.

شأنها واتسع نفوذها ، ولو كان هذا الخبر صحيحاً لما أغفلت كتب التراث المبكرة ذكرها ، والذي نعتقده عدم صحة هذه الأخبار والدليل على ذلك عدم وجود أي خبر عنها في أي مصدر من مصادر التاريخ والتراث الإسلامي المبكر^(١).

٢. ظهر الأئمة الزيدية في اليمن ، وبخاصة في صعدة وصنعاء وأقاموا دولتهم هناك قروناً عديدة (٢٨٤-١٣٨٢هـ/٨٩٨-١٩٦٢م) ، وكانوا يرتادون الطريق بين اليمن والحجاز عبر أرض بيشة ، فالإمام القاسم بن علي العياني ولد في تبالة عام (٣١٠هـ/٩٢٢م) وعاش فيها مع أولاده وأفراد أسرته معظم حياته ، وفي آخر خمس سنوات من حياته (٣٨٨-٢٩٣هـ/٩٩٨-١٠٠٢م) ترك مسقط رأسه وذهب ليتولى حكم الدولة الزيدية في اليمن^(٢). وجاء بعض أحفاده كالقاسم ومحمد ابني جعفر بن الإمام القاسم بن علي العياني ، فخرجوا هاربين من أرض اليمن واستقروا في موطن أجدادهم في ترج وتبالة لمدة تسع سنوات^(٣). (٤٥١-٤٥٩هـ/١٠٥٩-١٠٦٦م). وهؤلاء الرجال الذين يدينون بالمذهب الزيدي كانوا على صلات اجتماعية واقتصادية بسكان ترج وتبالة من وادي بيشة ، لكن لم يذكر لهم أي نشاط ديني أو عقدي ، وربما كان سكان البلاد المحليين لا يتقبلون مذهبهم ، مع أنهم كانوا يقدرونهم ويحترمونهاهم لأنهم أشرف من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب.

والروايات المتأخرة والمذكورة في النقطة السابقة تشير إلى حروب دامية وقعت بين أهل عسير ، التي يقودها رجالات بني أمية في هذه الناحية ، وبين القوى الزيدية التي

(١) لقد ذكرت تفصيلات كثيرة في بعض بحوثي ومؤلفاتي التي صدرت خلال العشرين عاماً الماضية ، وذكرت أنه لا يوجد ولم يظهر في عسير دولة أو دويلة أموية. وإذا بحثنا في مصادر التاريخ الموسوعية المبكرة مثل كتب البلاذري، واليعقوبي، والطبري، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابن كثير، وابن خلدون فإننا لا نجد ذكراً لهذه الدويلة التي ظهرت على أرض عسير وامتد نفوذها شمالاً وجنوباً حتى سيطرت على نواحي عديدة في جنوب الجزيرة العربية.

(٢) لمزيد من التفصيلات عن الدولة الزيدية وبخاصة الإمام القاسم بن علي العياني ، انظر الفقيه القاضي الحسين أحمد بن يعقوب. سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني . تحقيق عبد الله محمد الحبشي (صنعاء : دار الحكمة اليمانية ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م) //ص٢٨ وما بعدها .

(٣) انظر، مفرح بن أحمد الربيعي. سيرة الأميرين الجليلين الشريفين الفاضلين: نص تاريخي يمني من القرن الخامس الهجري . تحقيق رضوان السيد وعبد الغني محمود عبد العاطي (بيروت : در المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ، ص ١٩ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس "بلاد السراة في كتاب سيرة الأميرين الجليلين الشريفين... من عام (٤٥١ - ٤٥٩هـ/١٠٥٩ - ١٠٦٦م) (دراسة تاريخية تحليلية) " ، دراسة مقدمة في الندوة العالمية السادسة لتاريخ الجزيرة العربية ، المنعقدة في جامعة الملك سعود بالرياض في الفترة من (٢٨ - ٢٩/١٠/١٤٢٧هـ / الموافق ١٩ - ٢٠/١١/٢٠٠٦م) . وقد نشرت هذه الدراسة في الكتاب السادس من تاريخ الجزيرة والخاص بالعصر العباسي من القرن الخامس حتى نهاية القرن السادس الهجري ص ١٢٩ - ١٥٦ .

كانت تهاجم البلاد العسيرية . وقد بذلنا الجهد للاطلاع على بعض المصادر الزيدية المبكرة ، فوجدنا القوى الزيدية كانت بالفعل تسعى إلى مد نفوذها إلى نجران وربما إلى بلاد قحطان وشهران شمالاً ، لكننا لا نجد ذكراً لهذه السلطة الأموية المزعومة في بلاد عسير وربما أشارت بعض المصادر الزيدية إلى أن بعض الأئمة الزيدية في القرون الإسلامية الوسيطة كانوا يتطلعون إلى مد هيمنتهم على ما يعرف اليوم بمناطق نجران وعسير ، ولكنهم وإن نجحوا لبعض الوقت وبخاصة في نواحي نجران ، إلا أنهم لم يستطيعوا إحكام السيطرة على هذه البلاد أما في بلاد بيشة فكانت تقع بعيداً تجاه الشمال عما يدور بين القبائل في نجران وصعدة وما حولهما^(١) .

كان ولاء أهل بيشة السياسي والديني لأهل مكة والحجاز عموماً . وجميع خلفاء الإسلام ، وأمراء الحجاز يرون أن بيشة تعد ناحية من نواحي مكة . وهناك بعض المصادر التي تورد أسماء أمراء وولاة أرسلوا من الحجاز إلى مخلاف تبالة الذي تعد بيشة قديماً ناحية من نواحيه ، كما أن أهل بيشة ومن يفد عليهم يحرصون على إبلاغ ولاة مكة بما يدور في بلادهم . وأكبر دليل على ذلك ما فعله الشريفان القاسم ومحمد حفيدا الإمام القاسم بن علي العياني عندما هربا من سطوة الصليحيين في اليمن عام (٤٥١هـ / ١٥٠٩م) وعادا إلى مسقط رأس جدهما في وادي بيشة وبخاصة في ترج فقالا: " لما صرنا بترج ... خشينا أن يلحقنا من الأمير ابن أبي الفتوح عتب إذ لم نتصل به لأن يده كانت تصل البلاد التي نحن بها " وأرسلا له رسولاً أبلغه بإقامتهم في وادي ترج ومعه بعض الهدايا المرسله للأمير مكة^(٢)

وكان أشرف مكة حريصين على الاتصال بأهل بيشة ، وأحياناً كانوا يرسلون من قبلهم من يسوس أحوال الناس هناك أو يقضي على بعض الفتن والثورات في بلادهم . والمصادر المحلية لتاريخ مكة تذكر بعضاً من هذه الصلات فيذكر أنه في شهر جمادى الثانية سنة (٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) قاد الشريف رميثة بن عجلان جيشاً " إلى بلاد الشرق فغاروا على شهران ، وعرب كثير فأنكسروا ... ، فقتل هو وجماعة من القواد والعبيد " ، ويفهم من كلمتي الشرق وشهران أنها منطقة بيشة التي تقع في ناحية الشرق ، وأنها من

(١) المصادر والمراجع نفسها . للمزيد انظر الدوسري ، إمتاع السامر ، ص ٩ وما بعدها ، وللمزيد عن تاريخ الدولة الزيدية وتوسع نفوذها تجاه نجران وعسير وما جاورها ، انظر ، علي بن محمد العباسي العلوي . سيرة الهادي إلى الحق . تحقيق سهيل زكار (بيروت: د. ن ، ١٩٨١م) ص ٧٢ وما بعدها ، عبد الواسع الواسعي . تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن . (صنعاء: الدار اليمنية ، للنشر ، ١٤١٤ هـ / ١٩٨٤م) ، ص ١٧٩ - ١٨١ ، ابن جريس ، نجران ، ج ١ ، ص ١١٠ - ١١٢ .

(٢) المصادر والمراجع نفسها .

المناطق الرئيسية لقبيلة شهران العريضة^(١). وفي حديث عن الشريف جمال الدين بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أنه في شهر صفر عام (٨٧٥هـ/١٤٧٠م) "سافر وعياله وعسكره إلى الشرق... وغاب ببلاد الشرق نحو ثلاثة أشهر وعاد بالسلامة" وفي شهر جمادى الآخرة عام (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) "جاء قاصداً من عند الشريف، وأخبر أنه غزا عرب بيشة وقتل منهم جماعة، وغنم دروعاً وإبلًا وغير ذلك" ويتضح من هذه النصوص أن أشرف مكة كانوا على صلات بنواحي الشرق مثل بيشة وما جاورها، وذلك من باب شعورهم بالمسؤولية تجاه هذه النواحي وأنها جزء من مناطق نفوذهم^(٢).

خامساً: مظاهر الحضارة في بيشة :

بيشة من المواطن الحضارية الهامة وبخاصة في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية، فغرام السلمي يصفها قائلاً "وفي حد تبالة... قرية يقال لها بيشة"^(٣). ومعظم سكانها من القبائل العربية العدنانية والقحطانية. أما الإدريسي فيشير إلى أنها "مدينة صغيرة متحضرة جيدة المساكن حسنة البقعة"^(٤). وبيشة ليست قرية ولا مدينة وإنما هي مجموعة من القرى والبيوادي الواقعة في أسفل وادي بيشة، ناهيك عن قرى وبيواد أخرى كثيرة على روافد الوادي والمنحدرة من أعالي السروات^(٥). وناصر خسرو من أهل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي يصف تلك النواحي قائلاً: "فيها كثير من المدن مثل: نجران، وبيشة وبها قرى كثيرة وبيواد لا تدخل تحت الحصر"^(٦). وفي كل بادية حاكم مستبد لا يخضع لأي سلطة مركزية. ويضيف أيضاً أنه يوجد بهذه البلاد حصون محكمة ومضائق جبلية وسكانها من الحضرة والبادية^(٧)، وهذا ما أكد

(١) شهران العريضة: هي القبائل والبطنون الشهرانية القاطنة في البلاد الممتدة من خميس مشيط وشعف تهامة شهران حتى حاضرة بيشة. وغالبية سكان هذه البلاد يدعون شهران العريضة، معظم بطونهم ينتسبون في قبيلة خثعم. مشاهدات الباحث وجولاته في معظم بلاد شهران العريضة خلال عامي (١٤٢٧ - ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧ م).

(٢) أمراء الحجاز في أواخر العصور الإسلامية الوسيطة كانوا يحرسون على أن تكون الطائف وما يقع جنوبها من الديار حتى تربة ورنية وبيشة وتبالة تحت نفوذهم وذلك لما تحتويه هذه الديار من عقارات ومزروعات وبساتين وأنعام وغيرها، بالإضافة إلى بسالة وشجاعة رجال هذه البلاد الذين قد ينضون تحت لواء أشرف مكة في ميادين الحروب إذا احتاجوهم وطلبوا منهم المساعدة.

(٣) انظر: غرام السلمي، ص ٤٢١.

(٤) الإدريسي، نزهة، ج ١، ص ١٤٦. وللمزيد انظر ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ٢٨٦، حميد الله، مجموعة الوثائق، ص ٢٩١.

(٥) جولات الباحث في المناطق التي تتحدر منها روافد وادي بيشة خلال الشهور الأخيرة من عام (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

(٦) خسرو، ص ١٤٢.

(٧) المصدر نفسه، للمزيد انظر، الهمداني، صفة، ص ٢٣٨. ٢٣٩.

عليه الرسول ﷺ في كتابه الذي أرسله إلى قبيلة خثعم من حاضرة بيشة وباديتها^(١). والغالب على حاضرة بيشة وبواديتها حتى اليوم أنها تقع في موقع استراتيجي يجمع بين حياة البادية والحضر^(٢)، بل بها جميع مقومات الحياة كوفرة المياه، وكثرة المواشي والمراعي والزراعة، إلى جانب وجودها على الطريق اليمني الحجازي الذي يعد من أهم الطرق التي تصل اليمن بالحجاز وتعد القرى وهيمنة الشيوخ على مواطنهم تكاد تكون صفة سائدة عند عموم عشائر وقبائل الجزيرة العربية خلال العصور الجاهلية والإسلامية وحتى عهد قريب من تاريخنا الحديث. ونجد الهمداني وابن المجاور وغيرهما يذكرون ذلك بوضوح^(٣)، وأفضل من صور لنا حياة سكان بيشة وغيرهم من القبائل القاطنة في البلاد الواصلة بين اليمن والحجاز هو ابن المجاور الذي أشار إلى تلك النواحي فقال: "هي قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر، وكل قرية منها مقيمة بأهلها، كل فخذ من فخذ العرب وبطن من بطون البدو في قرية. ويواصل حديثه فيذكر أنهم "قبائل وفخوذ، بل مشائخهم منهم وفيهم وهم بطون متفرقون". ويسرد بعض المعلومات عن طبيعة حياتهم وتعاملهم مع بعضهم البعض أو مع من جاورهم من البطون والقبائل فيذكر أن جميع هذه البلاد "لا يحكم عليهم سلطان، ولا يسلمون خراجاً، ولا يسلمون قطعة، إلا كل واحد منهم مع هوى نفسه، ولا يزال القتال دأبهم ويتغلب بعضهم على مال بعض، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو، وهم طوال الدهر على هذا الفن، وهم في دعة وأمان"^(٤).

وغالبية طعام وشراب سكان بيشة من منتوجاتهم الزراعية، المتوفرة في مزارعهم الكثيرة. بالإضافة إلى اللحوم والمشتقات الحيوانية التي يحصلون عليها من مواشيتهم، كالأغنام والماعز، والجمال، والصيد البري لبعض الطيور والحيوانات. ومن الأطعمة المتوفرة في بلادهم البر، والشعير^(٥)، واللبن، واللحوم، والسمن، والثريد، والتمور،

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ١، ص ٢٨٦.

(٢) جولات الباحث الميدانية في نواح عديدة من محافظة بيشة خلال الأشهر الأخيرة من عام (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، والأشهر الأولى من عام (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م).

(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١١٩، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٢٨. ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ج ١، ص ٢٧٢٦، ص ٢٨٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٢٦.

(٥) الهمداني، صفة، ص ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٩، ٣٠٢. ابن الفقيه، البلدان، ص ٢٤، العواحي، بيشة، ص ٣١، صالح الشمري (العوامل الجغرافية التي ساعدت على التوسع الزراعي في وادي بيشة) الندوة الجغرافية الرابعة، جامعة أم القرى (١٤٢١هـ) ص ٢٢٥ وما بعدها، الشريف، جغرافية، ج ٢، ص ٤٣١ وما بعدها. ويغلب على تضاريس وادي بيشة من أعالي السروات إلى حاضرة بيشة تنوعه في الجبال والهضاب والأودية والدرجات الزراعية، واحتوائه على الكثير من الأشجار والنباتات والحيوانات والطيور المختلفة. الشريف، جغرافية، ج ٢، ص ٤٢٤. وما زالت بيشة تحتوي على الكثير من مزارع النخيل، وبعض أهلها إلى الآن يصنعون من سعف النخيل العديد من المفارش وبعض الأدوات المستخدمة في المنازل. مشاهدة الباحث في أوائل عام (١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م). انظر أيضاً: ياقوت، معجم، ج ٥، ص ١٥٨.

والطماطم ، والعنب ، والرمان ، والبطيخ . أما الألبسة فكانوا يحصلون على بعضها من جلود حيواناتهم أو من منتوجاتهم الزراعية وبخاصة النخيل التي يعملون من سعفها الكثير من المفارش والألبسة . وهناك ألبسة وسلع أخرى تستورد من اليمن والحجاز وبخاصة عند أهل مكة الذين تتوفر بكثرة في أسواقهم^(١)

ونجد المقدسي من أهل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يصف أهالي وادي بيشة ومن جاورهم من أهل السراة فيذكر أن أشكالهم تميل إلى السمرة ، والغالب عليهم الدقة والهزال ، وكثرة ثيابهم القطن وأشار أيضاً إلى بعض عاداتهم الاجتماعية كاستخدام الحناء للزينة عند نسائهم وكان بينهم تعاون وتكاتف في أمور حياتهم من أجل البقاء ومواجهة الحياة^(٢) . ويذكر ابن المجاور أن للقوم عصبية وأهلاً فإذا مات الميت عندهم لا يحمل جنازته إلى القبر إلا الشباب ويقولون "سلم سلمك الله هذا ما وعد الله نعم القاضي وهم يتداولون النعش إلى المقبرة ، وهم الذين يحضرون القبر"^(٣) .

أما مظاهر الحياة الدينية والعلمية في بيشة ، فكان أهلها يدينون بدين الإسلام ، وقد لاحظنا كتب الرسول ﷺ إلى بعض قبائلها فكانت واضحة صريحة في تحديد أمور حياتهم الدينية وما يجب عليهم إتباعه حتى يكونوا مسلمين آمنين تحت مظلة الإسلام^(٤) . وبقوا على إسلامهم ، وساروا مع عموم من جاورهم من أهل الحجاز والسراة على مذهب الإمام الشافعي ، الذي خرج في رحلته من الحجاز إلى السراة واليمن ، وتولى الإمارة والقضاء في بلاد نجران خلال عهد الخليفة هارون الرشيد^(٥) . وانتشر مذهبه في عموم هذه البلاد خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه . كما عاش بينهم بعض أهل الكتاب مثل اليهود والنصارى وهذا ما ورد واضحاً عندما كاتب الرسول ﷺ إلى أهل تبالة وجرش "وجعل على كل حالم ممن بهما من أهل الكتاب ديناراً"^(٦) .

- (١) انظر ، محمد بن أحمد بن جبير . رحلة ابن جبير . (بيروت : دار صادر . د . ت) ص ١١٠ - ١١٢ ، غيثان بن علي بن جريس " ملامح النشاط التجاري لبلاد تهامة والسراة في العصور الإسلامية الوسيطه " دراسة قدمت في ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (٢٥ - ٢٧ / ٨ / ١٤٢١ هـ / الموافق ٢١ - ٢٣ / نوفمبر / ٢٠٠٠ م) . ونشرت في أعمال الندوة ضمن كتاب : طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ (حصاد رقم (٨)) - (١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م) ص ١٥٧ وما بعدها .
- (٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٩٥ ، ١٠٤ .
- (٣) ابن المجاور ، ج ١ ، ص ٢٥ .
- (٤) ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣٤٨ .
- (٥) ابن أبي حاتم ، عبد الرحمن بن أحمد الرازي . آداب الشافعي ومناقبه . تحقيق عبد الغني عبد الخالق (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦ هـ) ، ص ٢٢ وما بعدها . ابن جريس ، نجران ، ج ١ ، ص ١٥١ - ١٥٣ .
- (٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٧٠ .

وإذا أمعنا النظر في حياة سكان وادي بيشة الدينية والعلمية وجدنا المصادر لا تسعفنا بالشيء الكثير مع أن حاضرة بيشة كانت من المحطات التجارية الهامة بين اليمن والحجاز ويمر بها العلماء والشعراء والأدباء ورجال الدولة ، لكننا لا نجد لهم في المدونات التراثية أثراً كبيراً^(١) ويصف الهمداني فصاحة السكان القاطنين في الأجزاء العلوية من وادي بيشة فيقول " الفصاحة من العرض في وادعة... فأرض نهد وبني أسامة فعنز ، فخشع ، فهلال ، فعامر بن ربيعة ، فسراة الحجر .."^(٢). ومن هذا النص يتضح أن معظم البلاد المعنية في هذا الوصف هي السروات التي تسقط منها روافد وادي بيشة ، ومنهم من يستوطن أعالي السروات وآخرون يعيشون في سفوح السروات الشرقية حتى حاضرة بيشة وقد بذلنا جهوداً لمعرفة رجال العلم والفكر والثقافة في هذه البلاد فلم نجد ضاللتنا وبخاصة إذا قارناها باليمن أو الحجاز ، أو حتى المخلاف السليماني في تهامة^(٣). وإذا رجعنا إلى كتب الطبقات والتراجم ، وأحياناً كتب التاريخ والأدب واللغة نجد ذكر أسماء كثيرة من حاضرة بيشة وأحياناً من سكان بعض روافد وادبها . وكان بينهم صحابة وتابعون ومنهم من روى الأحاديث وآخرون برزوا في بعض جبهات الجهاد ، ومنهم أيضاً شعراء خرجت عن بعضهم دراسات متأخرة من خلال جمع شعرهم وترتيبه ودراسته ولكن المشكلة التي قابلناها مع هؤلاء الرجال أنهم عاشوا خارج بلاد بيشة فمنهم من ظهر في الحجاز وآخرون خرجوا إلى الأمصار الإسلامية في العالم الإسلامي وهناك دراسات حديثة جمعت بعضاً من أسماء وتراجم أولئك الرجال ، لكننا لا نجد لهم أي أثر فكري أو علمي أو ثقافي على مواطنهم الرئيسية في بلاد بيشة وربما ساهم بعض الشعراء في حياة المجتمع وإن كانوا خارج ديارهم ، إلا أنهم كانوا يعودون إلى بيشة بين الفينة والأخرى ، أو أنهم كانوا يذكرون بلادهم الأولى أو بعض أجزائها في شعرهم وهم خارج وطنهم الأول^(٤). فالهجري ذكر بعض الشعراء الذين في

(١) انظر العمري ، طريق البخور ، ص ٧٤ . ابن جريس "ملاحج النشاط التجاري" ، ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) الهمداني ، صفة ، ص ٢٧٩ .

(٣) نلاحظ أن اليمن والحجاز وكذلك المخلاف السليماني مذكورة بكثرة في كتب التراث ، فهناك تراجم ومدونات عن علمائها وأدبائها وشعرائها بعكس بلاد السراة ونواحيها الشرقية فتجدها فقيرة في حياتها العلمية والفكرية. للمزيد انظر . غيثان بن علي بن جريس. " ملاحج الحياة العلمية في بلاد تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيلة " دراسة مقدمة في ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (١٢- ١٥/١٠/١٤٢٢ هـ الموافق ٢٠ أكتوبر - أول نوفمبر/ ٢٠٠١ م). ونشرت ضمن أعمال الندوة في كتاب: المراكز الثقافية والعلمية في العالم العربي عبر العصور. حصاد رقم (٩) (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م) ، ص ١٩٥ - ٢٥٦ .

(٤) انظر: ديوان ابن الدمينية. جمع وتحقيق أحمد راتب النفاخ. تقديم ومراجعة محمود محمد شاكر (القاهرة : دار العرب ، ١٣٧٨ هـ) ، ص ١٤ وما بعدها . انظر أيضاً أخبار ابن الدمينية ونسبه . كتاب الأغاني . لأبي الفرج الأصفهاني (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م) . ط ٢ ، ج ١٧ ، ص ٩٨ وما بعدها . للمزيد انظر الأصفهاني ، الأغاني (طبعة بيروت) (١٤١٢ هـ) ج ١٢ ، ص ٦٤ وما بعدها ، محمد بن سلام الجمحي . طبقات فحول الشعراء (القاهرة : مطبعة المدني ، د . ت) ، ج ٢ ، ص ٥٨٣ ، ٥٩٣ ، ٦٢٥ .

وأخر أسمائهم البيشي مثل: " أبو محمد البيشي روى عنه شعراً لابن الدمينية "، وقال:-
وأشدني أبو الجهم البيشي وغيره لابن الدمينية، ولم يذكر ما أنشده^(١). وابن الدمينية،
هو عبد الله بن عبيد الله، عاش ومات خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري/
الثامن الميلادي وهو من أهل بيشة، والمرتادين لها، وكان مقتله في نواحي تبالة وقد جمع
شعره في ديوان مستقل^(٢).

وله شعر كثير يذكر انتمائه إلى خثعم وإلى بيشة..، ومن ذلك شعر يمتدح فيه معن
بن زائدة قائلاً:

لولا رجاؤك لم أسر من بيشة عرض العراق بفتية ورواحل^(٣)
وذكر أبياتاً أخرى يفخر بقومه خثعم ومنها قوله:

وخثعم قومي ما من الناس معشر أعم ندى منهم وأنجى لخائف^(٤)

والشاعر العجير السلولي من بني سلول في بيشة، وكان يذهب ويروح ما بين بيشة
وحواضر العالم الإسلامي، وله دور حسن في حل الصراع الذي كاد أن يقع في بيشة بين
خثعم وسلول، وذلك عندما ذهب إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأخبره بكثرة
مياه بيشة، وكثرة خيراتها الزراعية، فأرسل الخليفة إلى أمير مكة وأمره بإرسال من
يتولى أمر الري والزراعة فيما اختصم عليه بني سلول وخثعم. وفي ذلك يقول العجير:

لا نوم للعين إلا وهي ساهرة حتى أصيب بغيبظ أهل مطلوب
إن تشتموني فقد بدلت أيكتم زرق الدجاج وتجفاف اليعاقب
قد كنت أخبرتكم أن سوف يعمرها بنو أمية وعداً غير مكذوب^(٥).

وإذا كان بعض أئمة اليمن الزيدية لهم علاقات اجتماعية واقتصادية بأهالي بيشة،
إلا أننا نجد لهم نشاطاً علمياً أو دينياً، وربما يعود عدم نشاط الحياة العلمية
الفكرية في بيشة إلى أسباب أبرزها:

(١) الهجري، التعليقات، ج٤، ص ١٦٨٧.
(٢) ديوان ابن الدمينية، ص ٣٥. انظر أيضاً: عبد الله بن مسلم بن قتيبة. الشعر والشعراء (بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ٤٩٣، ٤٩٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧. ولابن الدمينية أشعار عديدة في كتاب: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص ٤٩٢.
(٤) ياقوت، معجم، ج ٥، ص ١٥٨.
(٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٥٩. للمزيد انظر: الجمعي، طبقات، ج ٢، ص ٥٨٣، ٦١٥، ٦٢٦.

١. أن تركيبة عموم السكان قبلية بدوية فهم يحصرون نشاطاتهم على كسب أرزاقهم دون أن يسعوا إلى تطوير أنفسهم علمياً وثقافياً . ثم إن معظم سكان وادي بيشة وبخاصة الأجزاء العلوية منه يعيشون في عزلة جغرافية عن من حولهم ، بسبب وعورة تضاريس بلادهم ، وأيضاً رغبتهم في عدم الاحتكاك بالغير إلا في الحالات القصوى مثل : . مشاركتهم في الحروب والصراعات القبلية ، أو ذهاب بعضهم ، وهم قلة ، في بعض التجارات لكسب أقواتهم^(١) .
٢. كانت طبيعة القبائل قديماً الانغلاق على نفسها ، وإذا اضطرت للاتصال بغيرها فذلك من باب التحالف مع عشائر أو قبائل أخرى حتى تقوي نفسها ، وتجد المساعدة من أحلافها إذا اضطرت إلى خوض حروب مع قبائل أو عشائر معادية لها .
٣. ربما كان في محطة بيشة التجارية التي تجتازها الطريق التي تصل اليمن بالحجاز بعض النشاطات العلمية والفكرية ، وبخاصة أنه يمر عليها علماء وفقهاء ورجال فكر يأتون من الشام واليمن ، ودونت عنهم كتب التراث الشيء الكثير . ونجد بعض الآثار التي تؤكد ذلك ، فهناك الكثير من الرسوم والنقوش والكتابات الصخرية الإسلامية التي تذكر أسماء بعض من اجتاز تلك النواحي ، أو مات فيها . وهناك العديد من الأسماء والأدعية والعبارات الدينية المدونة على الأحجار والصخور في مواطن عديدة من بلاد بيشة وتحتاج إلى متخصصين في علم الآثار يدرسونها ويحللون كلماتها ومعانيها .

الحياة الاقتصادية نشطة في نواحي بيشة ومن أهمها : . موقع بيشة كمحطة

تجارية على طريق الحجاز واليمن ، وقد أشارت إليها العديد من المصادر المبكرة وبينت وقوعها على طريق البخور المتجه من اليمن إلى شمال وشرق الجزيرة العربية ، واستمرت أهميتها التجارية خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه . وقد صدرت دراسات علمية متأخرة وضحت أهمية هذه الطريق ، ودور المحطات التجارية عليه بما فيها بلدة بيشة^(٢) . والباحث عن الطرق التجارية الداخلية ضمن نطاق وادي بيشة لا يجد لها

(١) هكذا كان يدين سكان هذه البلاد خلال القرون الإسلامية الوسيطة حتى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) وبعد تطور الأحوال السياسية والحضارية في عهد الدولة السعودية الحديثة تغيرت أحوال الناس وسارت عجلة التنمية وتحسنت أوضاع المواطن في جميع المجالات. للمزيد انظر: غيثان بن علي بن جريس. صفحات من تاريخ عسير (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، جزءان، وللمؤلف نفسه، بلاد بني شهر، (ط٢)، ص ٤٨-١١٠.

(٢) قدامة، ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ابن خرداذبة ، ص ١٢٤ ، وما بعدها ، الإدريسي ، نزهة ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ . وهناك دراسة لمحمد الشبان صدرت باللغة الإنجليزية من وكالة وزارة التربية والتعليم للآثار والمتاحف (الرياض، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م) . وهي أساسا رسالة دكتوراه حصل عليها المؤلف من جامعة (درم) ببريطانيا عام (١٩٩٣م)

ذكرأ في المصادر الإسلامية المبكرة ، لكن من خلال تجوالنا في نواحي هذا الوادي من أعلاه إلى مدينة بيشة في حوضه الأسفل لاحظنا العديد من الطرق القديمة المرصوفة بالحجارة التي تربط بين القرى بعضها مع بعض، بل نجد آثار الأسواق القديمة في بعض قرى وادي بيشة. وسمعنا من بعض أهالي تلك القرى إلى أن بعض المواقع مازالت تعرف باسم سوق الجمعة ، أو الخميس ، أو الأربعاء وغيرها من الأسماء. وهذه صفة نكاد نلمسها عند الكثير من القبائل في جنوب الجزيرة العربية فيكون السوق في مكان محدد وضمن نطاق قبيلة أو قبائل معلومة تقوم على حفظه وحماية من يرتاده . ولو بحثنا عن وضع المعاملات التجارية في عموم وادي بيشة لا نجد في المصادر المبكرة ما يوضح لنا هذا الجانب . لكننا نجد العديد من المصادر المبكرة والدراسات والأبحاث المتأخرة التي توضح نوع العملات المستخدمة في الحجاز واليمن^(١) ، وعن أنواع المكابيل والموازن، وأساليب التعاملات التجارية في تلك النواحي^(٢). ومن المؤكد أن تلك المعاملات التي كانت سائدة في الحجاز واليمن هي نفسها التي كان معمولاً بها في نواحي بيشة وما جاورها من أرض السروات ، وذلك يعود لأسباب عديدة منها :

- ١ . أن بلاد بيشة حلقة من حلقات الوصل التي تربط بين اليمن والحجاز ، ثم إن طريق الحج والتجارة بين صنعاء ومكة كانت نشطة ومستمرة طوال عصور الجاهلية والإسلام. ومن المعلوم أن نواحي بيشة كانت ناحية صغيرة تتبع ولاية الحجاز ولا يوجد بها حكومة أو سلطة قوية تستطيع أن تسك العملة وتطبق نظاماً تجارياً مستقلاً كما كانت حواضر اليمن والحجاز
- ٢ . أننا نجد المصادر الإسلامية المبكرة ، كالأزرقي ، والهمداني ، والمقدسي ، وابن جبير ، وابن المجاور ، وابن بطوطة ، وابن فهد ، وغيرهم يذكرون العديد من

وعنوانها باللغة الانجليزية هو

Pilgrim Route (An Archaeological Study of the Yemeni Highland Between Sana and Mecca).

- (١) المقدسي ، أحسن ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن جبير ، ص ٩٨ - ٩٩ ، ابن المجاور ، ج ١ ، ص ١٢ ، ٨٩ ، ١٤٤ . أحمد الزيلعي . مكة وعلاقتها الخارجية (٢٠١ - ٤٨٧ هـ) (الرياض : عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود ، ١٤٤٠ هـ / ١٩٨١ م) ص ١٦٠ وما بعدها ، ابن جريس ، دراسات ، ج ١ ، ص ٢٨٢ وما بعدها
- (٢) المصادر والمراجع نفسها . وهناك بعض الأقوال التي تشير إلى بعض الدراهم في بيشة خلال عهد الخليفين العباسيين هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) ، والطائع (٣٦٣ - ٣٨١ هـ / ٩٧٤ - ٩٩١ م) . مع أننا غير متأكدين من هذه الأقوال . وربما وجدت في بيشة بعض الدراهم العباسية خلال عهد بني العباس ومن المحتمل أن تكون ضربت في الحجاز أو اليمن أو إحدى الأمصار الإسلامية الأخرى . الخنمي ، بيشة ، ج ٢ ، ص ٤٤ . العواجي ، الآثار ، ص ١٣٥ وما بعدها ، حمد الجاسر " المعادن القديمة في بلاد العرب " مجلة العرب (١٢٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) ج ١١ ، ص ٨٢٩ . مشاهدات الباحث خلال شهر صفر عام (١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م) .

السلع التي كانت تصدر من نواحي بيشة وما جاورها من أرض السروات إلى أسواق مكة ، وكيف كان تجار تلك النواحي يأتون إلى الطائف ومكة من أجل بيع سلعهم أو استبدالها أو مقايضتها بسلع أخرى كالأقمشة والأواني المنزلية وغيرها^(١).

ومن أهل بيشة من عمل في مهن عديدة كالتجارة والدباغة، والخرازة، والحدادة ، وغيرها من المهن المتنوعة في ممارستها وفي أدواتها الأولية ، وغالباً ما كانت المواد الأساسية لممارسة تلك المهن متوفرة في أرض بيشة فالأشجار المتنوعة توجد في طول وعرض البلاد ، وكثير من تلك الأشجار تستخدم في النجارة ، والدباغة ، والصباغة^(٢). والحدادة والصياغة وصناعة الفخار والتعدين كانت من أعمال بعض البيشيين ، ولازلنا نجد آثاراً لبعض مواقع التعدين في بيشة . ويتحدث الهمداني عن بعض المعادن وأماكن التعدين في بيشة فيذكر أن معدن بيشة يعطان في عهده يأتي رطله بالعيار العلوي ثمانية وتسعين رطلاً ، وهو صاف في معدنه، ويذكر أنه لم يكن يعمل في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي^(٣).

وفي أرجوزة الحج للرداعي قال :

نجد ثور ضمراً سهوماً يجشمن منها المعدن المجشوم

ونجد ثور هو معدن بيشة يعطان الذي أشار إليه الهمداني ، وآثار هذا المعدن مازالت شاهداً للعيان في شرق بلدة بيشة يميل نحو الشمال^(٤). كما تشير بعض المواطن الأثرية في بيشة إلى مناجم للمعادن وبعض المحاجر التي تستغل في صناعة الأواني الفخارية^(٥).

ومهن الرعي والجمع والالتقاط والزراعة من المهن التي عرفها البيشيون ، وذلك يعود إلى تضاريس بلادهم إذ يتوفر بها السهل والوادي والجبل . وكل هذه المعالم التضاريسية جعلت بعضهم يمارس مهنتي الرعي والزراعة. وقد شاهدنا في كتب

(١) للمزيد : انظر : الأزرقى ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، الهمداني ، صفة ، ص ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ . المقدسي ، ص ٨٧ ، ابن جبير ، رحلة ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٠ . ابن المجاور ، ج ١ ، ص ١٥ ، ٢٧ ، ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٢) الهمداني ، صفة ، ٢٢٦ ، ٣٠١ ، المقدسي ، ص ٨٤ ، ابن جبير ، ص ٩٦ ، ١١٠ .

(٣) الهمداني ، كتاب الجوهرتين (الرياض : ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ، ص ٨٧ .

(٤) الهمداني ، صفة ، ص ٤٢٩ . مشاهدات الباحث خلال شهري المحرم وصفر عام (١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م)

D.M."Sources of Gold Silver in Islam" Studia Islamic. Vol . VIII (1957) pp. 1 -11 .

(٥) العواجي ، الآثار ، ص ١٣٥ وما بعدها ، الخثعمي ، ص ١٢٨ وما بعدها . مشاهدات الباحث خلال شهر صفر عام (١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م) .

النبي ﷺ لبعض القبائل البيشية توضيح مقادير زكاة المواشي^(١). وإرسال مثل تلك التعليمات الفقهية يؤكد على ثراء بلادهم في الثروتين الحيوانية والزراعية. وهناك مصادر أخرى تذكر وفرة المزروعات والمياه. فقدمة يذكر أن بلدة بيشة تقع في بطن الوادي، وهي: "كثيرة الماء من عيون وآبار"^(٢). ويتحدث ابن خرداذبة عن بيشة بعطان فيقول: "هي كبيرة فيها ماء ظاهر"^(٣). ويتفق الإدريسي مع قدمة وابن خرداذبة ويصفها بأنها "حسنة البقعة وفيها ماء ظاهر"^(٤). ويشير الهمداني وابن جبير إلى وفرة الثمار والمزروعات في الأجزاء السروية من وادي بيشة^(٥). ويتحدث المقدسي عن تلك النواحي فيذكر أنها "معدن الحبوب والخيرات والتمور والعسل الكثير"^(٦).

ويوجد العسل بكثرة في نواح عديدة من وادي بيشة وذلك لخصوبة هذا الوادي، وإلى توفر المناخ المناسب لحياة النحل به. ويذكر ياقوت إلى كثرة شجر النخل في بيشة^(٧). ويوجد في عموم وادي بيشة الكثير من الأشجار المتنوعة، والحيوانات البرية كالقروود، والذئب والنمر والأسد وغيرها^(٨). وهناك العديد من الشعراء الذين صوروا وادي بيشة فذكروا كثيراً من مزروعاته وأشجاره وحيواناته، ومن أولئك الشعراء: السمهري الذي ذكر العديد من الأبيات الشعرية التي قال في بعضها:

عديد الحص والأثل من بطن بيشة وطرفائها مادم فيها حمامها^(٩)
وقال رجل من بني هلال يقال له رياح في ذكر ناحية مطلوب من بيشة :
يا أثلتي بطن مطلوب هويتكما لو كانت النفس تدني من أمانها^(١٠)
ويقول لبيد في قصيدته :

(١) ابن سعد، ج ١، ص ٢٨٤، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق، ص ٢٩٢.

(٢) قدمة، ص ١٨٨.

(٣) ابن خرداذبة، ص ١٣٥.

(٤) الإدريسي، ج ١، ص ١٤٦.

(٥) الهمداني، صفة، ص ٢٥٧، ٢٦٢. ابن جبير، ص ١١٠.

(٦) المقدسي، ص ٨٦.

(٧) ياقوت، معجم، ج ٥، ص ١٥٨.

(٨) العواجي، بيشة، ص ٣١ وما بعدها. مشاهدات الباحث خلال شهر صفر عام (١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م).

(٩) ياقوت، معجم، ج ١، ص ٥٢٩.

(١٠) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٥٠.

- جفرت وأزيلها السراب كأنها أجزاع بيشة أثلها ورضامها^(١)
ويذكرها أبو الحياش الحجري في قصيدته طالباً المطر والاستسقاء :
- وتلابت سيول بيشة في أعراضها فهي لجة طخيا^(٢)
ويذكر حميد بن ثور الهلالي :-
- إذا شئت عنتنى باجزاع بيشة إلى النخل من تثليث أو يمبميا^(٣)
والمتجول في نواحي بيشة اليوم يجد العديد من آثار الأبار القديمة التي يعود تاريخها إلى مئات السنين ، وقد اندثر بعضها مع الأيام ومازال بعضها عامراً يستخدم حتى اليوم وهناك العديد من الشعراء الذين أشاروا إلى حيوانات بيشة وبخاصة الأسود ، فالشاعر الأحوص يمدح الخليفة عمر بن عبد العزيز ويصفه بالشجاعة فيقول :
- عديد الحص والأثل من بطن بيشة وطفائها مادام فيها حمامها
ويقول :
- حتى كأنك يتقى بك دونهم من أسد بيشة خادر متيسل^(٤)
وتقول الخنساء في رثاء أخيها صخرأ :
- من أسد بيشة يحمي الخل ذي لب من أهله الحاضر الأدين والبادي^(٥)
ويقول حسان بن ثابت في باب الفخر :
- كأنهم في الوغى والموت مكتنع أسد بيشة في أرساعها فدع^(٦)
وقال قيس بن الخطيم :
- الفيتهم يوم الهيجاء كأنهم كأسد ببيشة أو بغاب رواف^(٧)

(١) ديوان ربيعة بن لبيد العامري .

(٢) الهمداني ، صفة ، ص ٣٧٩ .

(٣) ابن خرداذبة ، المسالك ، ص ١٣٥ .

(٤) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٢١ ، ص ١١١ .

(٥) ديوان الخنساء (بيروت : ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) ، ص ١١ .

(٦) الأصفهاني ، الأغاني ، ج ١٨ ، ص ٩٢ .

(٧) البكري ، معجم ، مج ٢ ، ج ٤ ، ص ١٢٧٦ .

وقال الشاعر أيضاً :

عش بالخداع فأنت في دهر بنوه كأسد بيشة^(١)

وبالاطلاع على العديد من النقوش والرسومات الصخرية في نواح عديدة من بيشة يستنتج أنها كانت مليئة بالعديد من الحيوانات الأليفة كالأبقار ، والجمال والخيول ، والحمير ، والكلاب ، بالإضافة إلى بعض الحيوانات البرية المفترسة مثل الأسود والذئاب وغيرها .

سادساً :- الخاتمة :- (نتائج البحث وتوصياته) :

خرجنا من خلال هذه الدراسة بالعديد من النتائج والتوصيات التي نجمل أهمها في النقاط الآتية :

١ . بيشة اسم يطلق على الوادي والحاضرة معاً ، فإذا نظرنا إلى وادي بيشة وجدناه من أكبر أودية الجزيرة العربية ، ويعيش على روافده العديد من البطون والعشائر العربية التي ينحدر معظمها من أصول أزدية قحطانية ، وهذا الوادي يتصل ببلاد واسعة تمتد من أرض قحطان جنوباً إلى خثعم وشمران وغامد شمالاً .

ورغم عدم مناقشتنا لتاريخ الأجزاء العلوية من الوادي التي تسقط من بلاد السروات ، إلا أننا حاولنا استخلاص بعض الدروس والفوائد التي تقيدها في حديثنا عن حاضرة بيشة ، التي تقع عند الحوض الأسفل من واديها ، وذلك بالعمل على معرفة الصلات التاريخية والحضارية بين البلدة نفسها (بيشة) وبين الوادي بشكل عام . مع الحرص على إبراز ملامح الاتفاق ، ومظاهر الافتراق ، تاريخياً وحضارياً بين كل من أهل الوادي والبلدة على حد سواء .

٢ . تركز جل حديثنا على حاضرة بيشة بمفهومها الواسع ، وتطرق إلى سبب تسميتها بهذا الاسم ، وموقعها ، ونوعية سكانها ، وأصولهم وصلاتهم ببعضهم ، وكيفية دخول أهلها إلى حوزة الإسلام ، مع ذكر المراحل التي مر بها البيشيون خلال عهد الرسول ﷺ وما تلاه من عهود الخلفاء الراشدين ، والأمويين ، والعباسيين ، حتى القرون الإسلامية الوسيطة .

٣ . لم يقتصر الحديث عن بيشة على التاريخ السياسي والإداري ، إنما امتد إلى ذكر المظاهر الحضارية الأخرى ، كالجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، والعلمية والثقافية ، والفكرية .

(١) انظر ، محمد أمين المحبي ، نفحة الريحانة (بيروت : د.ت) ص ٣٦٩ .

٤. عُرِفَت بيشة في العصور السابقة للإسلام ، واكتسبت قدراً من الشهرة لكونها مركزاً من المراكز التجارية التي تقع على طريق البخور الذي يصل الشمال بالجنوب ، واستمر ذكرها في كتب التراث الإسلامي ضمن محطات طريق الحج الجبلي الواصل بين مكة وصنعاء ، بيد أن الوقوف على دور هذه الحاضرة تاريخياً وحضارياً يحول دونه الكثير من الصعاب التي من أهمها :

(أ) أن الباحث عن دور المراكز الحضارية الواقعة بين اليمن والحجاز وبخاصة في الأجزاء الجبلية ، يلمس مجيء بيشة من أقلها ذكراً في كتب التراث ، بينما نظفر بمعلومات تاريخية متنوعة حول الطائف ، وتبالة ، وجرش ، ونجران ، وصعدة ، مع أن مؤهلات بعض تلك المراكز كتبالة وجرش مثلاً لا تكاد تدنو من المؤهلات الجغرافية والاقتصادية التي تحظى بها حاضرة بيشة. وإذا نظرنا إلى ذكر تلك النواحي الثلاث (بيشة ، وتبالة ، وجرش) وجدناها جميعها ضمن روافد وادي بيشة ، إضافة إلى أن بيشة كانت مغمورة تاريخياً وحضارياً ، بعكس جرش وتبالة اللتين كان يقيم فيهما ولاية الخلفاء آنذاك ، ومنهما وإليهما تذهب وتروح المراسلات ، وتتظم الصلات بين القوى الإدارية في الحجاز ، أو بلاط الخلفاء الأمويين والعباسيين .

(ب) إن غالبية سكان حاضرة بيشة يعودون في أصولهم القبلية إلى عشائهم الأم التي استوطنت سفوح السروات الشرقية ، وتعد قبائل خثعم والأزد من أكثر البطون والعشائر المستوطنة في بيشة ، مع أن معظم هذه القبائل تقطن في السروات ، وبخاصة على روافد وادي بيشة الذي تأتي منابعه من غامد وشمران شمالاً ، إلى شهران وقحطان جنوباً . وقد بذلنا جهوداً كبيرة لمعرفة تاريخ هذه النواحي والعشائر وحضارتها ، خاصة في القرون الإسلامية الأولى إلا أننا لم نظفر إلا بشذرات متناثرة لا تقدم صورة واضحة عن تاريخ سكان تلك البلاد وحياتهم ، مع أن المؤكد من خلال وثائق التاريخ الحديث والمعاصر ، أن هيمنة القبيلة على أرضها وسكانها كانت أبرز ملامح الحياة في هذه القبائل وغيرها في الجزيرة العربية ، إذ لم تكن هناك مؤسسات إدارية تسوس أحوال الناس وتشرف على شؤونهم .

(ج) كان من المفترض أن تكون بيشة أكثر شهرة وذيوعاً ، وأوسع ذكراً وتاريخاً من غيرها في البلاد الواقعة بين نجران والطائف ، وذلك لأهميتها التجارية ، ووفرة خيراتها الزراعية ، ومرور العديد من العلماء والتجار والساسة بها ، والذين كانوا يستريحون فيها أثناء ذهابهم وإيابهم بين اليمن والحجاز ، كما كان لهم فيها بعض النشاطات الحضارية المختلفة ، ولكن كان لعدم التدوين أكبر الأثر في جعلها نسياً

منسباً ، هي ومثيلاتها من البلاد النائية التي شطت عن أصحاب الفكر والثقافة ، الذين يميلون في الأغلب الأعم - إلى الحواضر والمدن أمثال : صنعاء ، ومكة المكرمة ، والمدينة ... وغيرها .

٥. ربما يعد عصر الرسول ﷺ أفضل فترات التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط الذي نجد فيه ذكراً لبعض عشائر بيشة ، وفي عهود الخلفاء الراشدين ثم الأمويين والعباسيين ، نراها قد أصبحت جزءاً من النواحي أو المخاليف التابعة لوالي مكة . ومع هذه التبعية إلا أن المصادر التاريخية العامة أو المحلية المكية لا تذكر لنا صورة واضحة عن أهل بيشة وتاريخها ، إنما تذكرهم أحياناً كجزء من بلاد السروات ، أو ضمن مخلاف تباله الذي كانت بيشة تتبعه قديماً . وربما تحدثت بعض المصادر اليمينية عن حاضرة بيشة ، ولكن بشكل غامض لا يتطرق أو يكشف عن تركيبها السياسية ، أو الإدارية ، أو حتى الجوانب الحضارية الأخرى .

٦. قادتني معرفتي بطبيعة وادي بيشة وسكانه ، وكذلك تجوالي في حاضرتة مراراً إلى ملاحظة تنوع تضاريس هذه البلاد ، ووفرة خيراتها من المياه ، والزرع ، والأشجار ، والنباتات ، والطيور ، والحيوانات ، بل وقفت على العديد من صور التاريخ والحضارة في هذا الوادي ، ففي بعض جنباته تظهر المقابر المتنوعة في أشكالها ، حتى إن بعض القبور فيها تصل إلى دورين أو ثلاثة فوق سطح الأرض . وهناك أماكن عديدة للمناجم ، والتعدين ، وصناعة الرحى والأحجار ، وآبار عميقة وقديمة ، بل ترى بعضها محفوراً في الصخر ، فضلاً على قرى ، وحصون ، وكهوف ، ومواطن لبعض الأسواق الأسبوعية القديمة المندثرة ، إضافة إلى مئات النقوش ، والرسومات الصخرية ، والكتابات المتنوعة ، والمنتشرة على جبال وهضاب ووهاد حاضرة بيشة خاصة ، وعلى فروع ومساقط الوادي . ومثل هذه المصادر الأثرية جديرة بالبحث والدراسة حتى نعرف أزمانها ، وما ساد عصورها من تاريخ وحضارة . ولا يمكن الوصول إلى ما نتطلع إليه إلا بتضافر الجهود المادية والمعنوية ، من الجهات الحكومية الرسمية ، والعلمية الأكاديمية ، وكذلك القطاعات الخاصة التي ربما تستطيع أن تخرج لنا كنوزاً معرفية لا يمكن الوصول إليها إلا بالدراسة الأكاديمية الأثرية المنظمة . ورغم صدور بعض الدراسات المحدودة عن بيشة ، إلا أنه يغلب عليها التاريخ السردي الوصفي ، ويجب أن نتجاوز هذه المرحلة إلى مراحل الدراسات المقارنة والتحليلية والاستنتاجية ، وكذلك الأثرية ، وهذه مسؤولية المتخصصين الأكاديميين ، كل يسهم في مجال تخصصه حتى نطلع على تاريخ تراثنا وواقعه ، في عصور أسدل عليها الستار وضاع أغلب تاريخها .

٧. نرى في بلادنا الكثير من المؤسسات البحثية والتعليمية والأكاديمية، ولا مرأى في أن عليها مسؤولية أمام الله عز وجل تجاه أبنائنا وأحفادنا، تتمثل في ألا نجرب عنهم تاريخ أباؤنا وأجدادنا، أو أن نقصر في استجلائه، إنما ينبغي أن نحرض كل الحرص على دراسته دراسة علمية موضوعية أكاديمية نزيهة، ثم نسلمه إليهم حتى يقودوا سفينة العلم والبحث من بعدنا. ويوجد اليوم على ضفاف وادي بيشة أو مقربة منه خمس جامعات حديثة هي: جامعات الملك خالد، ونجران، والباحة، والطائف، وبيشة. وعلى هذه الجامعات وغيرها من جامعات دول الخليج مسؤولية وطنية في دراسة بلادها، وتأسيس طرق البحث العلمي في كلياتها ومراكز أبحاثها. وإنني أوجه دعوة صادقة إلى القائمين على الجامعات الخمس الأنفة الذكر أن يتقوا الله عز وجل في أبنائهم، وكوادر جامعاتهم الأكاديمية، وكذلك مراكز أبحاثهم العلمية، فيرعوها حق رعايتها، إشرافاً، ودعماً، وتشجيعاً، وأن يعلموا أن الديار التي تقع في محيط جامعاتهم مليئة بالكنوز العلمية والفكرية، وهذه بيشة موضوع بحثنا، وغيرها من المواقع والمواطن مملأ بجميع مقومات البحث العلمي، بل أراها ميادين غنية لمن يرغب في العكوف على دراستها في أي جانب من جوانب الثقافة والمعرفة. والمسؤولية ممتدة إلى جامعاتنا الكبرى في الخليج العربي، وكذلك إلى هيئاتنا ومراكز أبحاثنا العلمية والأكاديمية، لتقوم بالواجبات المنوطة بها، وتسعى إلى استقطاب الكوادر العلمية الجيدة التي ترتقي بمستواها العلمي الأكاديمي، وكذلك إلى حكومات بلادنا بجميع جهاتها الرسمية، إذ يجب عليها التشجيع والإشراف والمتابعة البناءة للارتقاء بمستوى أفرادنا ومؤسساتنا الثقافية والعلمية والأكاديمية.

٨. هناك العديد من العناوين، والكنوز البحثية العامة الوثيقة الصلة بأرض بيشة، والقمينة بالبحث والدراسة، والأمل معقود على المتخصصين والأكاديميين في جامعاتنا في أن يمنحوها بعض الاهتمام في أبحاثهم العلمية، ويدفعوا بعض طلابهم في أقسام الدراسات العليا إليها ومن تلك الموضوعات والأطروحات:

(أ) حاضرة بيشة خلال القرون الإسلامية الوسيطة (ق٤هـ ق١٠هـ/ ق١٠-١٦م)
(دراسة تاريخية أثرية)

(ب) العلاقات السياسية والحضارية بين بيشة وما جاورها من الحواضر، مثل: جرش، أو نجران، أو تبالة، أو الطائف.

(ج) التاريخ الأدبي لبيشة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطه .

(د) دراسة النقوش والكتابات والرسوم الصخرية في بيشة وبخاصة في العصر الجاهلي والإسلامي المبكر والوسيط .

ثالثاً: العباء وأهميتها التاريخية والاقتصادية في ضوء المصادر والاكتشافات الأثرية . بقلم . أ. محمد بن جرمان العواجي ^(١) .

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٤٧
٢	الاسم والموقع	٤٨
٣	العباء وأهميتها التاريخية	٤٩
٤	العباء وأهميتها الاقتصادية	٥٤
٥	الخاتمة	٥٥

١- المقدمة :

تعد العباء من أهم الحواضر العربية القديمة لوقوعها على مسار درب البخور الذي كان يربط المراكز الحضارية في جنوب الجزيرة العربية بشمالها ^(٢). وقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن العباء من أهم المراكز الصناعية في جزيرة العرب، قبل الإسلام وبعده، فقد عاصرت النشاط الاقتصادي لممالك جنوب الجزيرة العربية وحافظت على أهميتها التاريخية والاقتصادية حتى العصر العباسي. لذلك فهي جديرة بهذا البحث الذي نستلهه بإلقاء الضوء على اسمها ثم التعريف بموقعها الجغرافي، ومكانتها

(١) الاستاذ محمد العواجي من مواليد قرية شديق بمدينة بيشة عام (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) حصل على تعليمه العام ثم العالي في حاضرة بيشة، وما زال يعمل في مجال التعليم حتى الآن. عضو في عدد من الجمعيات العلمية الرسمية والأهلية والاجتماعية، حصل على العديد من الشهادات والجوائز والتكريمات على مستوى محافظة بيشة أو منطقة عسير. وهو كاتب، وشاعر، وباحث في مجال التاريخ، والآثار، والأنساب، والأدب، وله أكثر من عشرين كتاباً أو بحثاً أو مقالاً، ومنها: (١) القيم الإنسانية في شعر الرثاء الجاهلي (الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤١٤-١٤١٥هـ). (٢) تاريخ بني خثعم وبلادهم في الماضي والحاضر (الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ). (٣) بيشة (الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤٢٦هـ). (٤) آثار بيشة (دراسة تاريخية) (١٤٢٨هـ). (٥) بيشة في نصوص الشعر القديم (١٤٢٨هـ). (٦) قبيلة بالأحمر (بلحمر) وبلادها (١٤٢٩هـ). قبيلة بالأحمر (بنو الأسمر) وبلادها (١٤٢٩هـ). (٧) قلعة ابن شبكان في الرقيطاء والدولة السعودية الأولى (١٤٢٧هـ). (ابن جريس).

(٢) هناك مواقع عديدة في بلاد تهامة والسرارة، وبعضها أكثر شهرة من العباء، وجميع هذه الأمكنة تستحق البحث والدراسة العلمية الرصينة. (ابن جريس).